الدكتور

محمود توفيق محمد سعد

الأستاذ في جامعة الأزهر الشريف
وجامعة أم القرى بمكة المكرمة
(سابقا)

الإمام أبو حنيفة بليغا

وصيته تلاميذه

قراءة في المنهج والبيان


مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية ـ عابدين ـ القاهرة
ت ٢٣٩١٧٤٧٠ فاكس ٢٣٩٠٣٧٤٦

الإمام أبو حنيفة بليغا
وصيته تلاميذه
قراءة في المنهج والبيان

الدكتور
محمود توفيق محمد سعد

مكتبة وهبة ١٤ شارع الجمهورية - عابدين - القاهرة
٠٠٠ صفحة ١٤ × ٢٠سم
رقم الإيداع : ٢٠١٧/٢٠٧٩٦
الترقيم الدولي : .I.S.B.N
978-977-225-464-4



دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

سعد ، محمود توفيق محمد .

الإمام أبو حنيفة بليغًا : وصيته تلاميذه قراءة في المنهج والبيان / محمود توفيق محمد سعد

.. ط١ .. القاهرة : مكتبة وهبة للطبع والنشر والتوزيع ، ٢٠١٧

تدمك ٤ ٤٦٤ ٢٢٥ ٩٧٧ ٩٧٨

١- أبو حنيفة ، النعمان بن ثابت التيمى الكوفى ، ٦٩٩-٧٦٧
٢- الفقه الحنفي

أ- العنوان

٢٥٨,١



بسم الله الرحمن الرحيم

يقُولُ الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴾ (البقرة: ٢٨١)

﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴾

(النور: ٥١، ٥٢)

عَنْ أَبِى سَعِيدٍ الخُدريّ رَضِيَ اللهُ عَنهُ أنّ رسُول الله صلّى اللهُ عليْهِ وعلَى آلِه وصَحبِه وسلّم قال : « . . . **أَلاَ لاَ يَمْنَعَنَّ رَجُلاً مَهَابَةُ النَّاسِ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِالْحَقِّ إِذَا** عَلِمَهُ »[1].

---

(١) رواه الترمذي ، وابن ماجه وأحمد . وحسنه الألباني في الصحيحة رقم (١٦٨) وفي صحيح وضعيف سنن ابن ماجه رقم (٤٠٠٧) وفي صحيح الترغيب والترهيب رقم (٢٧٥١).

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ (الفاتحة: ٢-٤).

﴿ يَوۡمَ تَرَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَسۡعَىٰ نُورُهُم بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِم بُشۡرَىٰكُمُ ٱلۡيَوۡمَ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٢ يَوۡمَ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ قِيلَ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗا فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ ١٣ يُنَادُونَهُمۡ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمۡ فَتَنتُمۡ أَنفُسَكُمۡ وَتَرَبَّصۡتُمۡ وَٱرۡتَبۡتُمۡ وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ١٤ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُؤۡخَذُ مِنكُمۡ فِدۡيَةٞ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ مَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُۖ هِيَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾

(الحديد: ١٢-١٥).

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ، اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ، وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ

أمّا بعد ، فإنّ علاقاتِ النَّاسِ بعضهم ببعضٍ لتتعدّد وتتنوعُ وقد جعل الله تعالى من بينهم نسبًا يربطهم ببعضٍ ، وحثّ الهَدْيُ النَّبويُّ على أن يتعلَّم النَّاسُ من أنسابِهم ما يصِلون بِه أرحامَهم

روى الترمذي في كتاب (البر والصلةِ) من جامعه بسنده عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبيّ ﷺ قَالَ « تَعَلَّمُوا مِنْ أَنْسَابِكُمْ مَا تَصِلُونَ بِهِ أَرْحَامَكُمْ فَإِنَّ صِلَةَ الرَّحِمِ مَحَبَّةٌ فِى الأَهْلِ مَثْرَاةٌ فِى الْمَالِ مَنْسَأَةٌ فِى الأَثَرِ ».

قَالَ أَبُو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ[1] .

---

(١) ورواه أحمد في مسنده من حديثِ أبي هريرة ، والطبراني في المعجم الكبير . والحاكم في المستدرك وصَححه ، وصححه الألباني في صَحيح وضعيف سنن الترمذي . حديث رقم (١٩٧٩) وصحيح==

وأهلُ الحكمةِ على أنَّ العلمَ رحمٌ بيْن أهلِه ، فنسبُ العِلم بيْن العالمِ بكتابِ الله تعالى وبسنة نبيه صَلّى اللهُ علَيْهِ وعَلى آلِه وَصَحبِه وسلّم وتلامِيذِه أوثقُ وأبْركُ وأشرفُ من نسبِ الأصلابِ، وهذا ما جعل كلَّ عالمٍ يعرفُ قدرَ ما اصطفاه الله تعالى بِه من العِلم ، ويعلمُ فضلَ ما حمّله الله تعالى من نور العلمِ حريصًا على أنْ يتّخذ له مِن التَّلاميذِ مَن يغرسُ فيهم ذلك العلم ، ليراه قائمًا في لسان حالِهم أولاً ، ولسان مقالهم ثانيًا وليكون هو والذين معه منهم من الذين يعلِّمون النَّاسَ الخير ، فتكون جائزتهمْ أن يصلِّى الله تعالى وملائكته وأهلُ السّمواتِ والأرضِ عليهم كما جاء في نبإ النّبوة .

روى الترمذي في كتاب (العلم) من جامعه بسنده عَنْ أَبِى أُمَامَةَ الْبَاهِلِىِّ قَالَ ذُكِرَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ رَجُلاَنِ أَحَدُهُمَا عَابِدٌ وَالآخَرُ عَالِمٌ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ « **فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِى عَلَى أَدْنَاكُمْ** » .

==الجامع الصغير وزياداته حديث رقم (٢٩٦٥) وفي صَحيح الترغيبِ والترهيب حديث رقم (٢٥٢٠) وسلسلة الأحاديثِ الصحيحة حديث رقم (٢٧٦).

ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «إِنَّ اللَّهَ وَمَلاَئِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ حَتَّى النَّمْلَةَ فِى جُحْرِهَا وَحَتَّى الْحُوتَ لَيُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الْخَيْرَ» .

قَالَ أَبُو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ .

قَالَ سَمِعْتُ أَبَا عَمَّارٍ الْحُسَيْنَ بْنَ حُرَيْثٍ الْخُزَاعِىَّ يَقُولُ سَمِعْتُ الْفُضَيْلَ بْنَ عِيَاضٍ يَقُولُ عَالِمٌ عَامِلٌ مُعَلِّمٌ يُدْعَى كَبِيرًا فِى مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ[(١)] .

ومِمّن عــرَفَ فضــلَ نسبِ العلــمِ الإمــامُ أبو حنيفة النّعمان ابن ثابت رضي الله عنه ، اتّخذَ لنفسِه تلاميذَ حملوا عنه ما جاد به الله تعالى عليْه ، فكـانوا منه بمنزلةِ الولدِ ، فمنحهم من الوَصــاةِ ما يمنحُه الوالدُ ولدَه منها ، وكان مِن الحُسْنِ أن أتلبَّث مليًّا لأتبصّر فِي ما حملته وصاةٌ أسداها لتلاميذِه لعلّي أَستطيع أن أحملَ منها ما ينفع في ما نحنُ فيه .

والله المُستعانُ على طاعتِه .

---

(١) ورواه الطبراني في المعجم الكـبير . حـديث رقـم (٧٩١٢) وصـححه الألباني في صَحيحِ وضعيفِ سنن الترمذيّ حديث رقـم (٢٦٨٥) وفي صَـحيح الجـامع الصـغيرِ وزياداتـه . حـديث رقـم (١٨٣٨، ٤٢١٣) وحسنه في تحقيقهِ مشكاة المصابيح . حديث رقم (٢١٣).

وغيرُ قليلٍ مِمّن يتصدرون الآن لتعليم طلابِ العلم أحوج إلى هذه الوصيّة من تلاميذهم ، فإنّي وثلّة منهم معي لفي عَوزٍ بالغٍ إلى ما فيها من معانِي الهدى ، وأدبِ الطريقِ إلى الله تعالى . .

من هنا آثـرت التبصُّـر في وصـاته ، وفـاءً بـبعضِ حقـه ﵁ ، وبـبعض حـق طـلابِ العلـم . والله المرجـو عونـه علـى كمـال الإخلاصِ له سراً وعلنا وعلى إتقان العمل إيمانًا واحتسابًا .

وصلّى الله على سيدنا محمّدٍ وعلى آلِهِ وصَحبه ، وورثَته من أهلِ العلمِ وعلى أمته سلّم تسليمًا كثيراً . الحمدُ لله رب العالمين .

تحريراً في غرة ذي الحجة ١٤٣٨ هـ

الموافق

وكتبه

مَحمود توفيق مُحمّد سعد

almasry411@gmail.com

نبذة عجلَى
عن صَانِعِ الوصَاةِ أبي حنيفة رضي الله عنه

النعمان بن ثابن بن زَوْطِي (بفتح الزاي ، وسكون الـواو) مـولى بني تيم وُلِدَ سَنَةَ ثَمَانِينَ ، تابعيّ : رَأَى سيّدنا عبد الله بْـن الْحَـارِث ابن جُزْء وسيدنا عبد الله بن أبي أوفى وسـيّدنا أبـا الطُّفَيْــل عَامــر ابن وثلة وسيّدنا أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ رضي الله عنهم .

وَرَوَى أَبُو حَنِيفَـةَ عَـنْ جعفـر الصَــادق رضـي الله عنـه ، وعـن عَطَاءِ ابْنِ أَبِي رَبَاحٍ . وَعَنْ عَطِيَّةَ الْعَوْفِيِّ وَنَافِعٍ وَسَلَمَةَ بْنِ كُهَيْلٍ وَأَبِـي جَعْفَرٍ الْبَاقِرِ وَعَـدِيِّ بْـنِ ثَابِـتٍ وَقَتَـادَةَ وَعَبْـدِ الـرَّحْمَنِ بْـنِ هُرْمُـزٍ الأَعْرَجِ وَعَمْرِو بْنِ دِينَارٍ وحماد بن أبي سُلَيْمَانَ وَعَدَدٍ كَثِيرٍ .

صاحب مذهب في فقـه الكتـابِ والسّـنة والنظـر والقيـاسِ ، لـه مدرسة فقهية منتشر علمها في أنحاء الأرضِ ، كان تـاجر حريـرٍ ، وكان يرفض مـنح السـلطان ، وكـان واسـع الـرزق جـوادًا ، يُعنـى بتلاميذه ويرعـاهم ، ليتفرغـوا للعلـم ، حملـه الـوالي علـى تـولي القضاء فامتنع ، فضرب عليْه فأبى ، وحبس ، وقيل مات في حبسه

منه ، وكان قويّ الحجة ، من أحسن الناس منطقا ، قال الإمام مالك ، يصفه : رأيت رجلا لو كلمته في السارية أن يجعلها ذهبا لقام بحجته ! وكان كريما في أخلاقه ، جوادا ، حسن المنطق والصورة ، جهوريّ الصوت ، إذا حدّث انطلق في القول وكان لكلامه دويّ .

من أشهر تلاميذه : مِنْ تَلامِذَتِهِ : ولده حماد ، والقاضي أَبُو يوسف يعقوب بْن إِبْرَاهِيم الأنصاري قاضي القضاة ، ومحمد ابن الحسن الشيبانيّ ، وزُفَرُ بْنُ الْهُذَيْلِ الْعَنْبَرِيُّ ونوح بْن أَبِي مريم الْمَرْوَزِيُّ ، وَأَبُو مُطِيعِ الْحَكِيمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْبَلْخِيُّ ، وَالْحَسَنُ ابْنُ زِيَادٍ اللُّؤْلُؤِيُّ ، وَأَسَدُ بْنُ عَمْرٍو ، وخلق كثير .

وقال الشّافعيّ: النّاس عيال على مقاتل بن سليمان في التفسير ، وعلى زهير بن أبي سلمى في الشعر ، وعلى أبي حنيفة في الفقه ، وعلى الكسائي في النحو ، وعلى ابن إسحاق في المغازي .

ولمّا انتصبَ أبو يوسف للتدريسِ في زمن أبي حنيفة قبل أن يُعلمه ، أرسل إليْه أبو حنيفة خمس مسائل فقهية ، فأجاب أبو يوسف فخطأه أبو حنيفة وبين له الصواب ، فأدرك أبو يوسف أنه تصدى لما لم يبلغ فيه منزل الإحسان ، فعاد إلى الشيخ حتى نضج ، فأذن له .

وما هذا من أبي حنيفة إلا تعليمه له ألا يتولى عملا هو لم يتهيأ له ولم يشهد له أهل العلم به ، ولو سكت من لا يحسن عمّا لا يحسن لما كان خلافٌ كما قيل .

وتوالت الأنباء في كتبِ التراجم والأخبار بأن ابن هبيرة حمل أبا حنيفة على أن يلي القضاء ، فامتنع ، فلمّا أصر على الرفض ضربه مئة سوط كل يوم عشرة أسواط ، وأبو حنيفة صابر محتسب لا يلين . . وأُشخص إلى أبي جعفر المنصور في الكوفةِ ليتولى القضاء فيها ، فأبى ، فحلف عليه ليفعلنَّ ، فحلف أَبُو حنيفة أن لا يفعل ، فحلف المنصور ليفعلنَّ ، فحلف أَبُو حنيفة أن لا يفعل ، فقال الربيع الحاجب : ألا ترى أمير المؤمنين يحلف! فقال أَبُو حنيفة : أمير المؤمنين على كفارة أيمانه أقدر مني على كفارة أيمانِي ، وأَبى أن يلي ، فأمر به إلى الحبس في الوقت .

ذهب أبو حنيفة بالربيع بن يونس حاجب « المنصور » إلى أن إبرار القسم لا يكون بسبب مكانة المقسِم (بالكسر) وإنما بمقام ما أقسم عليه من الحقّ ، فكان في ذلك درس لمثل « الربيع » ممَّن يبتلون بالقرب من أصحاب « السلطنة » الإمارة العامة على تفاوت مستوياتها ، فكثيراً ما ترى بطانة ذي ولاية متسارعين للدّفاع عنه والدّفع عنه بالباطل دون تريث وتبصّر ما هو حق ، وكأنهم

يوقنون أنَّ ولاتهم يدور الحقَّ معهم حيث داروا ، فهم الحقّ ، والحق هم وهذا أنت واجده في عظم مجالس الولاة تجد ثلة (شلة) من المنتفعين يدفعون الحقَّ بالباطل .

قول الإمام أبي حنيفة : «أمير المؤمنين على كفارة أيمانه أقدر مني على كفارة أيماني» لا يفهم منه أنَّ أبا حنيفة يلفتُ إلى القدرة المالية على التكفير ، بل هو يرمي إلى أن الخليفة هو الأقدر على أن يحنث في يمينه لأنه يمين على شر ، ومن حلف على يمين فرأى غيرها خيرًا منها فليأت الذي هو خير ثم ليكفر عن يمينه ، فهو أقدر على ذلك لأنَّه حلف على شَيْءٍ غيره خير منه .

أمَّا أبو حنيفة فإنما حلف على شيءٍ هو الخير ، فهو ليس بأقدر على أن يكفر عن يمينه ، بل عليه أن يستمسك بما حلف عليه من الخير ، وقد فعل أبو حنيفة كذلك الرجال ، فاعتبروا يا أولي الأبصار .

ثم دعا به يوما فقال : أترغب عمَّا نحن فيه؟ قال : أصلح الله أمير المؤمنين لا أصلح للقضاء ، فقال له كذبت ، قال : ثم عرض عليه الثانية ، فقال أَبُو حنيفة : قد حكم علي أمير المؤمنين أني لا أصلح للقضاء لأنه ينسبني إلى الكذب ، فإن كنت كاذبا فلا

أصلح ، وإن كنت صادقا فقد أخبرت أمير المؤمنين أني لا أصلح .
قال : فرده إلى الحبس .

مقالة أبو حنيفة ضرب من المحاجة وافر الصدق والحكمة والبلاغة : أسس أبو حنيفة أمره على أن يتخذ من مقالة الخليفة حجة له : ألجأ أبو حنيفة الخليقة إلى أن يصفه بالكذب ، فلم يغضب أبو حنيفة واستثمرها في حكمة ، رآها نعمة أسديت إليه ومخرجًا له من ضائقته : بني على ما حكم به عليه الخليفة ما سعى إليه . حكم عليه الخليفة بالكذب فاستغلها : أبان له أنه إذا كان الخليفة صادقًا في حكمه عليه فأبو حنيفة صادق في أنه لا يصلح للقضاء ، فكل منهما صادق فيما قال !!!

إن كان أبو حنيفة قد كذب في ما أخبر به عن نفسه فقد أخطأ الخليفة في حمله على أن يتولى القضاء ، وهو كاذب ، أيصلح كاذبٌ أن يكون قاضيًا ؟! فكل من أبي حنيفة والخليفة لا يصلحان .

أبو حنيفة لا يصلح للقضاء لأن الخليفة حكم عليه بالكذب.

والحليفة لا يصلح للولاية العامة لأنه يريد أن يولي من ليس أهلاً . وذلك فساد وإفساد ، ومن فعل فليس أهلاً لأن يكون خليفة أو ملكًا أو رئيسًا .

كذلك صفع أبو حنيفة الخليفة بحكمته . صفعه بأنه ليس أهلاً لأن يكون خليفة لأنه يولي من ليس أهلاً .

وقول أبي حنيفة عن نفسه « لا أصلح للقضاء » هو فيه صادق والمعنى لا أصلح للقضاء في زمانك أيها الخليفة لأني لن أكون حرًّا ، فالقضاء عندك « مسيس » .

ولا أصلح للقضاء الذي تريده أنت أيها الخليفة : قضاء سمعنا وأطعنا ذلك تأويل قول أبي حنيفة عن نفسه « لا أصلح للقضاء » .

ونازله مرةً في أمر القضاء وأبو حنيفة يقولُ لأبي جعفر : اتّق الله تعالى ولا تُرعِي أمانتك إلا مَن يخاف الله تعالى والله ما أنـا بمأمون الرِّضا ، فكيف أكون مأمون الغضب؟! ولو اتجه الحكم عليك ثم هـددتني أن تغـرقني في الفـرات أو أن إلى الحُكـم لا اخترتُ أن أغرق ، ولك حاشية يحتاجون إلى مَن يكرمهم لك ، فلا أصلُح لذلك . فقال له : كذبت أنت تصلح ، فقال : قد حكمت لي على نفسِك كيف يحلّ لك أن تولي قاضيا على أمانتك وهو كذاب .

وكان أَحْمَـد بن حنبـل إذا ذكـر ذلك بكـى وترحـم على أبي حنيفة ، وذلك بعد أن ضرب أَحْمَد .

وكـان أبـو حنيـفـة يناصـر أبا الحســن إبراهيــم بـن عبــد الله ابن الحســن بن الحســن بن علي بن أبي طالب حين خــرج على أبي جعفر المنصُور ، وكان يَجْهَرُ بِالْكَلامِ في نصرتِه جِهَارًا شَـدِيدًا فَقُال له تلميذه زفر بن الهذيل :

وَاللَّهِ مَا أَنْتَ بِمُنْتَهٍ حَتَّى تُوضَعَ الْحِبَالُ فِي أَعْنَاقِنَا .

قَالَ : فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ جَاءَ كِتَابُ الْمَنْصُورُ إِلَى عِيسَى بْنِ مُوسَى أَن احْمِلْ أَبَـا حَنِيفَةَ . قَالَ : فَغَدَوْتُ إِلَيْهِ وَوَجْهَهُ كَأَنــَّهُ مُسِحَ ، قَالَ : فَحَمَلَهُ إِلَى بَغْدَادَ فعَاشَ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا ثُمَّ سَقَاهُ فَمَاتَ ، وَذَلِكَ فِي سَنَةِ خَمْسِينَ ومئة من الهجرةِ وَلَهُ سَبْعُونَ سَنَةً .

وهي السنة التي مات فيها مقاتل بن سليمان المفسّر ـ وصاحب أول كتاب وصلنا في الأشباه والنظائر في القرآن والتي ولد فيها الشّافعي ، والجاحظ . وكلاّ منهما إمام في بابه وقد عاش الجاحظ بعد وفاة الشافعي نصف قرن . (٢٥٥هـ) [١]

---

(١) ترجمتـه في أخبـار أبـي حنيفـة وأصـحابه ، لأبـي عبـد الله الصَّـيْمَري الحنفي (ت : ٤٣٦هـ) نشر : عالم الكتب ــ بـيروت ، الطبعـة الثانيـة ، ١٤٠٥هـ ص٥ وما بعدها .

تـاريخ الإسـلام ووفيـات المشـاهير والأعـلام للـذهبي (ت : ٧٤٨هــ) تحقيق : عمر عبد السلام التدمري نشر : دار الكتاب العربي ، بـيروت . الطبعة الثانية ، ١٤١٣ هـ (٣٠٥/٩) ==

نبذة عجلى عن راوي الوصَاة
قاضِي القُضاة أبي يوسف .

أَبُــو يوسف يعقوب بْن إِبْرَاهِيم بْن حبيب بن سعد بن بُجير الأنصاريّ . ولـد سنة ثلاثة عشر ومئة من الهجرة أي قبل وفـاةِ أبي حنيفة بسبع وثلاثين سنة وصحب أبا حنيفة سبع عشرة سنة .

حَــدَّثَ عَنْهُ : يَحْيَى بنُ مَعِيْنٍ ، وَأَحْمَــدُ بنُ حَنْبَــلٍ ، وَعَلِيُّ ابنُ الجَعْدِ ، وَأَسَدُ بنُ الفُرَاتِ ، وَأَحْمَدُ بنُ مَنِيْعٍ ، وَعَلِيُّ بنُ مُسْلِمٍ الطُّوْسِيُّ ، وَعَمْرُو بنُ أَبِي عَمْرٍو الحَرَّانِيُّ ، وَعَمْرٌو النَّاقِدُ ، وَعَدَدٌ كَثِيْرٌ .

==وسير أعلام النبلاء للذهبي . نشر مؤسسة الرسالة عام ١٤٠٥هـ ، ترجمة رقم (١٦٣) ٦/٣٩٠-٤٠٥ .

وتـاريـخ بغـداد للخطيب البغــدادي (ت : ٤٦٣هــ) تحقيـق مصـطفى عبد القادر . نشر دار الكتب العلمية ـ بيروت . الطبعـة الأولى ، ١٤١٧ هـ . ترجمة رقم : ٧٢٩٧ (١٣/٣٢٥-٤٢٦)

وكان الخطيـب البغـدادي متحـاملاً علـى أبـي حنيفـة جامعًـا مقـالات خصومه .

ولـم يختــلف يَحْيَى بْـن معين ، وأحمــد بن حنبل ، وعلي ابْن الْمَدِينِيّ فِي ثقته فِي النقل .

قَالَ أَحْمَدُ بنُ حَنْبَلٍ : أَوَّلُ مَا كَتَبتُ الحَـدِيْثَ ، اخْتَلَفتُ إِلَى أَبِي يُوْسُفَ .

وَكَانَ أبو يوسف أَمْيَلَ إِلَى المُحَدِّثِيْنَ مِنْ أَبِي حَنِيْفَةَ وَمُحَمَّدٍ .

قَالَ إِبْرَاهِيْمُ بنُ أَبِي دَاوُدَ البُرُلُّسِيُّ : سَمِعْتُ ابْنَ مَعِيْنٍ يَقُـوْلُ : مَا رَأَيْتُ فِي أَصْحَـابِ الرَّأْيِ أَثبَتَ فِي الحَـدِيْثِ ، وَلاَ أَحْفَظَ ، وَلاَ أَصَحَّ رِوَايَةً مِنْ أَبِي يُوْسُفَ .

وَعَنْ يَحْيَى البَرْمَكِيِّ ، قَالَ : قَـدِمَ أَبُـو يُوْسُفَ ، وَأَقَلُّ مَا فِيْهِ الفِقْهُ ، وَقَدْ مَلأَ بِفِقْهِهِ الخَافِقَيْنِ .

وَعَنْ هِلاَلِ الرَّأْيِ ، قَالَ : كَانَ أَبُـو يُوْسُفَ يَحفَظُ التَّفْسِيْرَ ، وَيَحفَظُ المَغَازِي ، وَأَيَّامَ العَرَبِ ، كَانَ أَحَدَ عُلُوْمِهِ الفِقْهُ .

قَالَ يَحْيَى بنُ يَحْيَى التَّمِيْمِيُّ : سَمِعْتُ أَبَـا يُوْسُفَ عِنْد وَفَاتِهِ يَقُوْلُ : كُلُّ مَا أَفْتَيْتُ بِهِ ، فَقَدْ رَجَعتُ عَنْهُ ، إِلاَّ مَا وَافَقَ الكِتَابَ وَالسُّنَّةَ .

وهو أول مـن خوطـب بقاضـي القضـاة ، وكـان اسـتخلفَ ابنـه يوسف عَلَى الجانب الغربي ، فأقرَّه الرشيد عَلَى عمله . توفي عـام

اثنيْن وثمانين ومئة من الهجرة بعد وفاة أبي حنيفة باثنين وثلاثين عامًا ، وكانت سنه تسعة وستين عامًا .

قال أبو حاتم : يكتب حديثه .

وقال الإمام أحمد بن حنبل : صدوق .

وقال حفيد أبي حنيفة إِسْمَاعِيل بْن حماد بْن أبي حنيفة :

كَانَ أصحابُ أبي حنيفة عشرة : أَبُو يوسف ، وزُفَر ، وأسد ابْن عمرو البجلي وعافية الأودي ، وداود الطائي ، والقاسم بْن معن المسعودي ، وعلي بْن مسهر ، ويحيى بْن زكريا بْن أبي زائدة ، وحبان ، ومندل ابنا علي العنزي . ولَمْ يكن فيهم مثل أبي يوسف ، وزُفر .

وقال عمار بْن أبي مالك : ما كَانَ فيهم مثل أبي يوسف لولا أَبُو يوسف ما ذكر أَبُو حنيفة ولا ابن أبي ليلى ، ولكنه هُوَ نشرَ قولهما وبث علمهما .

وقال طلحة بن محمد بن جعفر: وأبو يوسف مشهور الأمر ظاهر الفضل وهو صاحب أبي حنيفة وأفقه أهل عصره ، ولم يتقدمه أحد فِي زمانه ، وكان النهاية فِي العلم والحكم ، والرياسة والقدر ، وأولُ من وضع الكتب فِي أصول الفقه عَلَى مذهب

أبي حنيفة ، وأملى المسائل ونشرها وبث علم أبي حنيفة فِي أقطار الأرض .

يقول أسد بْن فُرات : سمعتُ مُحَمَّد بْن الْحَسَن يَقُولُ : مرض أَبُـو يوسف فِي زمن أبي حنيفة مرضًا خيف عَلَيْهِ منه ، قَالَ : فعاده أَبُـو حنيفة ونحنُ معه ، فلما خرج من عنده وضع يديه عَلَى عتبة بابه . وقال : إن يمت هذا الفتى فإنه أعلمُ من عليها وأومأ إلى الأرض .

وقال بشر بْن الوليد : سمعت أبا يوسف يَقُولُ : سألني الأعمش عَن مسألة فأجبته فيها ، فقال لي : من أَيْنَ قُلت هذا؟ فقلتُ : لحديثك الَّذِي حدثتناهُ أنت ، ثُمَّ ذكرتُ لَهُ الحديث . فقال لي : يا يعقوب إني لأحفظُ هذا الحديث قبل أن يجتمع أبواك فما عرفت تأويله حتى الآن .

قَالَ جَعْفَر بْن يس : كنت عِنْدَ المزني ، فوقف عَلَيْهِ رَجُل فسأله عَن أهل العراق فقال لَهُ : ما تَقُولُ فِي أبي حنيفة؟ فقال : سيدهم .

قَالَ : فأبو يوسف؟ قَالَ : أتبعهم للحديث ، قَـالَ : فمحمـد ابْن الْحَسَن قَالَ : أكثرهم تفريعًا قَالَ : فزُفر؟ قال : أحدهم قياسا .

وقال حفيد أبي حنيفة عُمر بن حماد بْن أبي حنيفة عَن أَبِيهِ قَالَ : رأيتُ أَبَـا حنيفة يومًا وعن يمينه أَبُـو يوسف ، وعن يساره

زُفَر ، وهما يتجادلان فِي مسألة ، فلا يَقُولُ أَبُو يوسف قولا إلا أفسده زُفَر ، ولا يَقُولُ زُفَر قولا إلا أفسده أَبُو يوسف إلى وقت الظهر ، فلما أذن المؤذن رفع أَبُو حنيفة يده فضربَ بِهَا عَلَى فخذ زُفَر وقال : لا يطمع فِي رياسة ببلدة فيها أَبُو يوسف . قَالَ :

وقضى لأبي يوسف عَلَى زُفَر .

وقال ابن كرامة : كُنَّا عِنْدَ وكيع يومًا فقال رَجُل : أخطأ أَبُو حنيفة ، فقال وكيع : كيف يقدرُ أَبُو حنيفة يُخطئ ومعه مثل أبي يوسف وزُفر فِي قياسهما ، ومثل يَحْيَى بْن أبي زائدة ، وحفص بْن غياث ، وحبان ، ومندل فِي حفظهم الحديث ، والقاسم بْن معن فِي معرفته باللغة العربية ، وداود الطائي ، وفُضيل بْن عياض فِي زهدهما وورعهما؟

من كَانَ هَؤُلاءِ جلساؤه لم يكد يُخطئ لأنه إن أخطأ ردوه .

وقال حفيد أبي حنيفة : إسماعيل بن حماد بن أبي حنيفة : قَالَ أَبُو حنيفة يومًا : أصحابنا هَؤُلاءِ ستة وثلاثون رجلا ، منهم ثَمانية وعشرون يصلحون للقضاء ، ومنهم ستة يصلحون للفتوى ، ومنهم اثنان يصلحان يؤدبان القضاة وأصحاب الفتوى ، وأشار إلى أبي يوسف وزفر .

وقال يحيى بن يحيى النيسابوري : سمعت أبا يوسُف يقول عند وفاته : كل ما أفتيت به فقد رجعت عنه إلا ما وافق الكتاب والسنة .

وقال : اللهمّ إنك تعلم أنّي لم أجر في حكم حكمت [فيه] بين اثنين من عبادك متعمّدا ، ولقد اجتهدت في الحكم فيما يوافق سنّة نبيّك ﷺ وكلّ ما أشكل عليّ فقد جعلت أبا حنيفة بيني وبينك ، وكان عندي والله ممّن يعرف أمرك ولا يخرج عن الحق وهو يعلمه .(١)

* * *

(١) تنظر ترجمته في سير أعلام النبلاء للذهبي ٥٣٥/٨ ،
ومناقب الإمام أبي حنيفة وصاحبيه . للذهبي ، ١٤٠٨ هـ . ص : ٥٧وما بعدها
والعبر في خبر من غبر ، للذهبي . تحقيق محمد السعيد بن بسيوني زغلول . نشر : دار الكتب العلمية ـ بيروت . ٢١٩/١ .
ومرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان لعفيف الدين اليافعي (ت : ٧٦٨هـ) عني به : خليل المنصور . نشر : دار الكتب العلمية ، بيروت . الطبعة الأولى ، ١٤١٧ هـ ص ٢٩٧ .
شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، لابن العماد العَكري الحنبلي (م.س) ٣٦٧/٢ .
وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لا بن خلكان (ت : ٦٨١هـ) تحقيق : إحسان عباس . نشر : دار صادر ـ بيروت . ٣٧٨/٦ .

نصّ الوصية

قال مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ عَفَّانَ الْعَامِرِيُّ ، ثَنَا الْوَلِيدُ بْنُ حَمَّادٍ اللُّؤْلُئِيُّ ، ثَنَا الْحَسَنُ بْنُ زِيَادٍ اللُّؤْلُئِيُّ ، سَمِعْتُ أَبَا يُوسُفَ ، يَقُولُ :

اجْتَمَعْنَا عِنْدَ أَبِي حَنِيفَةَ فِي يَوْمٍ مَطِيرٍ فِي نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ مِنْهُمْ : دَاوُدُ الطَّائِيُّ ، وَالْقَاسِمُ بْنُ مَعْنٍ ، وَعَافِيَةُ بْنُ يَزِيدَ ، وَحَفْصُ ابْنُ غِيَاثٍ ، وَوَكِيعُ بْنُ الْجَرَّاحِ ، وَمَالِكُ بْنُ مِغْوَلٍ ، وَزُفَرُ ، فَأَقْبَلَ عَلَيْنَا بِوَجْهِهِ ، وَقَالَ : « أَنْتمْ مَسَارُّ قَلْبِي ، وَجِلاءُ حُزْنِي .

وَأَسْرَجْتُ لَكُمُ الْفِقْهَ وَأَلْجَمْتُهُ ، وَقَدْ تَرَكْتُ النَّاسَ يَطَئُونَ أَعْقَابَكُمْ ، وَيَلْتَمِسُونَ أَلْفَاظَكُمْ .

مَا مِنْكُمْ وَاحِدٌ إِلا وَهُوَ يَصْلُحُ لِلْقَضَاءِ .

* * *

فَسَأَلْتُكُمْ بِاللَّهِ وَبِقَدْرِ مَا وَهَبَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ جَلالَةِ الْعِلْمِ مَا صُنْتُمُوهُ عَنْ ذَلِكَ الاسْتِئْجَارِ

* * *

وَإِنْ بُلِيَ أَحَدٌ مِنْكُمْ بِالْقَضَاءِ ، فَعَلِمَ مِنْ نَفْسِهِ خَرِبَةً سَتَرَهَا اللَّهُ عَنِ الْعِبَادِ لَمْ يَجُزْ قَضَاؤُه ، وَلَمْ يَطِبْ لَهُ رِزْقُهُ .

فَإِنْ دَفَعَتْهُ ضَرُورَةٌ إِلَى الدُّخُول فِيهِ ، فَلا يَحْتَجِبَنَّ عَنِ النَّاسِ ، وَلْيُصَلِّ الْخَمْسَ فِي مَسْجِدِهِ ، وَيُنَادِي عِنْدَ كُلِّ صَلاةٍ : مَنْ لَهُ حَاجَةٌ؟ فَإِذَا صَلَّى الْعِشَاءَ نادَى ثَلاثَةَ أَصْوَاتٍ : مَنْ لَهُ حَاجَةٌ؟ ثُمَّ دَخَلَ إِلَى مَنْزِلِهِ .

فَإِنْ مَرِضَ مَرَضًا لا يَسْتَطِيعُ الْجُلُوسَ مَعَهُ أَسْقَطَ مِنْ رِزْقِهِ بِقَدْرِ مَرَضِهِ .

* * *

وَأَيَّمَا إِمَامٍ غَلَّ فَيْئًا ، أَوْ جَارَ فِي حُكْمٍ ، بَطُلَتْ إِمَامَتُهُ ، وَلَمْ يَجُزْ حُكْمُهُ» [1]

* * *

---

(١) مناقب الإمام أبي حنيفة وصاحبيه ، لشمس الدين ، ١٤٠٨ هـ . ص: ٢٨

ما بُنِيتْ عليْهِ الوَصِيّةُ

حين تنظرُ في حركةِ المَعنى الَّذي يجرِي في بيانِ هذهِ الوصاةِ تجدُها حركةً متصاعِدةً تجمعُ مِن فُنون التَّثقيفِ النَّفسيّ وإقامة المعالم على الطريقِ ما يجعلُ مَن أحسنَ التّلقّي استماعًا وفهمًا متضلّعًا بما فيها ، مُستمسِكًا به ، مستثمِرًا ما فِيهِ .

بنَى هذه الوصيّة من فصلين كان الفصلُ الأوَّل فيها كالتَّمهيد والتوطئة للفصل الثاني الّذي هو مجال الوصية ومجلاها .

الفصل الأوّلُ : توطئة الوصية

جعله من ثلاثة :

المبحث الأوَّل : هو استهلالٌ كالمقدمةِ :

« أَنْتَمْ مَسَارُّ قَلْبِي ، وَجِلاءُ حُزْنِي ،

ورتب عليه أمرين الثّاني والثالث :

المبحث الثّاني : بيان ما فَعَلَ لهم :

« وَأَسْرَجْتُ لَكُمُ الْفِقْهَ وَأَلْجَمْتُهُ ، وَقَدْ تَرَكْتُ النَّاسَ يَطَئُونَ أَعْقَابَكُمْ ، وَيَلْتَمِسُونَ أَلْفَاظَكُمْ »

المبحث الثَّالث : شهادته لهم :

« مَا مِنْكُمْ وَاحِدٌ إِلا وَهُوَ يَصْلُحُ لِلْقَضَاءِ »

*   *   *

والفصل الثاني هو عمود الوصية :

وهو من ثلاثة :

المبحث الأول : وصيته لهم بصِيانة العلم عن الاستئجار .

« فَسَأَلْتُكُمْ بِاللَّهِ وَبِقَـدْرِ مَا وَهَبَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ جَـلالَةِ الْعِـلْمِ مَا صُنْتُمُوهُ عَنْ ذَلِكَ الاسْتِئْجَارِ »

المبحث الثّاني : المنهج عند إرغام السّلطان العالم على تولي القضاء .

« وَإِنْ بُلِيَ أَحَدٌ مِنْكُمْ بِالْقَضَاءِ ، فَعَلِمَ مِنْ نَفْسِهِ خَرِبَةً سَتَرَهَا اللَّهُ عَنِ الْعِبَادِ لَمْ يَجُزْ قَضَاؤُهُ ، وَلَمْ يَطِبْ لَهُ رِزْقُهُ .

فَإِنْ دَفَعَتْهُ ضَرُورَةٌ إِلَى الدُّخُولِ فِيهِ ، فَلا يَحْتَجِبَنَّ عَـنِ النَّـاسِ ، وَلْيُصَلِّ الْخَمْسَ فِـي مَسْجِدِهِ ، وَيُنَـادِي عِنْـدَ كُـلِّ صَـلاةٍ : مَـنْ لَـهُ حَاجَةٌ؟ فَإِذَا صَلَّى الْعِشَاءَ نادَى ثَلاثَةَ أَصْوَاتٍ : مَنْ لَـهُ حَاجَـةٌ؟ ثُـمَّ دَخَلَ إِلَـى مَنْزِلِـهِ ، فَـإِنْ مَـرِضَ مَرَضًـا لا يَسْتَطِيعُ الْجُلُـوسَ مَعَـهُ أَسْقَطَ مِنْ رِزْقِهِ بِقَدْرِ مَرَضِهِ »

المبحث الثّالث : وهو بمثابة الخاتِمة للوصيّة : مبطلات ولاية السلطان وحكم القاضي :

« وَأَيَّمَا إِمَامٍ غَلَّ فَيْئًا ، أَوْ جَارَ فِي حُكْمٍ ، بَطُلَتْ إِمَامَتُهُ ، وَلَمْ يَجُزْ حُكْمُهُ »

* * *

كذلك ترى إحكامَه بناء الوصيّة على نحوٍ لا يتأتى لك أن تقدم نجمًا على نجم في أيِّ فصلٍ ، ولا أن تقدِّمَ فصلاً على فصل.

هذا النّظم الترتيبيّ كما يُسميه برهان الدين البقاعي (ت: ٨٨٥هـ) هو أعلى منزلاً من « النظم التركيبيّ » عندَه وإن كان النّظمُ التركيبيّ جليلاً في نفسِه[١] . على أني لا أذهب مذهب « البقاعي » فالنظم التَّركيبيّ هو الأعلى والأبسط فسطاطًا ، وقد نشرت في طلاب العلم بحثًا بينت فيه ذلك ، عنوانه « مستويات بناء صورة المعنى في العقل البلاغي » مجلة « جذور » (نادي جدة الثقافي الأدبي) .

ونحنُ ـ طلاّبَ العلمِ ـ أحوجُ ما نكونُ إلى أن نُنفِق مِن عُمُرنا وجُهدِنا في فقهِ هذه الوصاةِ وفهمِها ، والتّأدبِ بِها ، فهي تحملُ

---

(١) نظم الدرر من تناسبِ الآياتِ والسور لبرهان الدين البقاعي (٨٥٥هـ) تحقيق : نشر دائرة المعارف العثمانية بحيدر أباد . الهند . . ١/١١ .

لطالبِ العلم ما لو اتخذه لما رأيت يومًا فينا شيخًا من شيوخِ الفتنةِ والفجور كالذي تزدحم بهم وسائل الإعلامِ على نحو لم نرَ مثله من قبلُ .

وكأنّ الذي جرى في ديارنا كان من ثِماره أن يميز اللهُ الخبيثَ من الطيبِ ، وأن تتكشّف أستارٌ ، وتتعرَّى خبيئات ، وأن تظهرَ للنّاسِ حقائق أشباه الرِّجالِ .

واللهَ تعالى نسألُه حُسنَ الخاتِمةِ في الأمرِ كلِّه ، وأن نلقاه وليس في أعناقِنا ما لا يرضَــاه من دَمٍ حــرامٍ أو كلمةٍ فاسِــدةٍ مفسِدة أو بَيْعَةٍ لظالمٍ فاجرٍ ، أو مناصرَةٍ لِباطلٍ أوْ سُكوتٍ عَن مُنكرٍ . إنّه ولي ذلك والقادرُ عليْهِ والمتفضّلُ به علينا .

* * *

فقه السِّياقِ المقاميّ لِلوَصيّة

استهلّ تلميذُ الإمامِ أبو يوسفَ الرِّوايةَ بِبيان السِّياقِ المَقاميّ الّذِي أسدَى فيه أبو حنيفة الوصيّةَ إلى تلاميذِه ، فقال : «اجْتَمَعْنَا عِنْدَ أَبِي حَنِيفَةَ فِي يَوْمٍ مَطِيرٍ فِي نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ»

في هذا الكشفِ عن هذا السّياقِ المقاميّ بيان لِمدَى حِرصِ طُلابِ العِلمِ على المُكث في مجلسِ الشّيخ مستشرفين مقدَمَه لِيحملُوا عنه ما يُجرِيه الله تعالى لهم في قلبِه ولسانِه من الحِكمةِ .

حمَلَهم أدبُ طلبِ العلم وحكمتِه إلى مناظرة ما هُم فيه مِن ضُر الشّتاءِ وبردِه القارص بِما يتطلّعون إلى ما سَيحمِلونه من دِفْءِ العِلم والحِكمة المتوافدِ عليهم من شيخِهم ، فكان لهم من هذا عونٌ على أن يكونَ مُكثهم انتظارًا لمقدمِ الشيخ أحبّ إليْهم مِن كلِّ شيْءٍ .

ولا تَحسبَنّ أنّ انتظارَهم هذا سيُقضَى في ما لا ينفعُهم ، كما يفعل كثيرٌ من طلابِ العلم الآن حين يُرغمُون بصارم اللوائح والقوانين علَى انتظارِ أُستاذِهم .

مَا يكونُ لِمن كان في طبقة أبي يوسف ومن ذكرهم من أقرانِه أن ينفقوا جزءًا من عُمُرهم فيما لا ينفع ، وهم في مجلسٍ يرقُبون فيه مقدمَ الإمام .

كيف يكونُ لهم أن يفعلوا ، وفيهم أبو يوسف الّذي يُحرّك بقلبِه ولسانه كلَّ ساكنٍ ، ويُؤجّجُ كلّ خامدٍ؟

عَلينا أن نتصوَّرهم وقد عَمدَ كلٌّ في نسقٍ أديبٍ أريبٍ إلى أن يضربَ بعقلِه ولسانِه في كلِّ مُعضِلةٍ من معضلاتِ العلم ، ويعرض ما قام في صدرِه من التَّفكر فيها ، لا يحملُه على هذا رغبةٌ في إبراز الفضلِ والتَّميّز ، كيف ، وفي قلوبِهم وسمعِهم يقُوم فتيًّا ما رواه التّرمذيُّ في كتاب (العلم) من جامعِه بسندِهِ عَن ابْنُ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ :

« مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِيُجَارِىَ بِهِ الْعُلَمَاءَ أَوْ لِيُمَارِىَ بِهِ السُّفَهَاءَ أَوْ يَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ أَدْخَلَهُ اللَّهُ النَّارَ »[1] .

فمثلُ هذا المبتغَى بالعلمِ من عظيم الظلمِ له ، والظلم ظلماتٌ يوم القيامة ، فحقّ العلم أن يستثمر فيما لا يحصّل إلا به : حسن الأدب مع الله تعالى إيمانًا واحتسابًا .

---

(١) حسنه الألباني في صَحيح وضعيف سنن الترمذي . حديث رقم (٢٦٥٤)

وإنّما يحمل تلاميذ أبي حنيفة إلى المدارسة والمناظرة في أثناء انتظاره أمران :

● رغبةٌ في أن ينقلَ كلٌّ إلى قلوبِ أقرانِه ما أحسن الله تعالى إليه به من الفهم ؛ لِتتَّسع أقطارُ ما يُستزرَع فيه ذلك الفهم ، فينمُو ويورقُ ويُزهرُ ويُثمرُ ، ثم لتكون له طرائقُ توثيق عديدةٍ متنوعة ، وهذا وجه من وجوه خدمةِ العلمِ ورعايته ، وكان الإمام الشَّافعيّ رضي الله عنه يقول : « **وَدِدت أنَّ ما مَعِي مِن العِلمِ عندَ النَّاسِ جميعًا ، ولا يُنسَبُ إليّ منه شيْءٍ** »

● والرّغبة في أن يَعرِضَ كلٌّ منهم ما عنده ليظهرَ لَه ما فِي فهمِهِ من النّقصِ والخللِ والدّغلِ والعَوج فيقومه قرينٌ له ، ويسدّده ، وبذلك يطمئنّ إلى صحَّةِ ما مَعه من الفهمِ حين ينقلُه إلى النّاسِ .

ذلك ما يحملُهم على التَّدارس وعرض كلٍّ ما معه مِن العلمِ على أقرانِه . وذلك من أدبِ طلبِ العلم وحكمتِه .

* * *

تبصّر في مقالة أبي يوسف : « اجْتَمَعْنَا عِنْدَ أَبِي حَنِيفَةَ فِي يَوْمٍ مَطِيرٍ فِي نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ »

قوله : « اجْتَمَعْنَا عِنْدَ أَبِي حَنِيفَةَ » فيه أنّ اجتماعهم ما كان إلامن أجل التلقّي عن الشيخِ ، فذلك هو الطَّلِبة ، وكلّ ما عداه

ليس بأهلٍ لأن يجمعهم . وإسناد الفعلِ إليهم آية على أن ذلك قد كان من كل واحدٍ منهم ، فهم سواء في الرَّغبة في ذلك .

وقوله : «فِي يَوْمٍ مَطِيرٍ» إشارة إلى شدة المطر وديمومته ، ممّا كان يمكن أن يكون سببًا في ألا يجتمعوا ، وأن يؤجّلوا اجتماعهم يومًا آخر ، ولكنّهم لم يفعلوا لما يعلمون من أنّ الحكمة تقضِي بانتهاز الفرصة متى أمكن ، فإن الأعمار بيد الله تعالى ، وما يدريهم أيبقون إلى باكر ، أو يبقى شيخهم إلى باكر؟ اغتنام الفرص هو سنة الأماجد . ولا سيّما في طلبِ العلم .

وتبصّر قوله : «فِي نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ» كان يُمكن أن يقولَ في جماعة من تلاميذه ، بيْد أنّه اصطفى هذه (في نفرٍ) ليلفتنا إلى أنّ كلاًّ قد نفرَ ممّا كان فيه ، إلى مجلسِ الشّيْخِ ، وكأنّ الذي كان فيه كلٌّ ونفر منه في مقابل ما هو إليْه نافر إنّما هو أمر لا يرضاه عاقلٌ أن يقدمه على مجلس الشيخ ، فكلُّ شيءٍ في منظور مجلسِه هو الجدير بأن ينفرَ منه ، ولذا تجدُ البيان القرآنيّ يعربُ عن السّعي في طلبِ العلم بالنَّفرةِ ، يقُول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى :

﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ (التوبة: ١٢٢)

في هذه الآية ما يحسنُ بكل ذي نظر وبصيرة أن يتلبث عنده ، من ذلك النفي في قوله ﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً ﴾ (التوبة:١٢٢) أهو نفي استطاعة أم نفي حسن؟ أي لا يستطيع أن ينفر كلّ المؤمنين أم ما يحسن بكل المؤمنين أن يفعلوا ، بل يقوم بذلك جمع ، وبغيرِه جمع؟

وقوله (لينفروا) ما الذي ينفرون منه ، وما الذي ينفرون إليه ؟ أهو نفر إلى الجهادِ أم إلى العلم ؟وما قيمة قوله (كافة) أيعادله قولنا (كلهم) أو (جميعهم)؟

وما وجه قوله (فَلَوْلاَ نَفَرَ) ؟ لم اصطفى هذا الفعل وهو أليق بحال الذهاب إلى الجهاد بالسيفِ ؟ وما علاقة هذا بالسعي إلى العلم؟ أكُلٌّ هو من باب الجهاد ؟ أهذا يلفتنا إلى ما رواه أبو داود في كتاب (الجهاد) من سننه بسنده عَنْ أَنس أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « جَاهِدُوا الْمُشْرِكِينَ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ » [١]

وما وجه قوله (مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ) واصطفاء كلمة (فرقة) وهي تحمل معنى التفرق؟ أيراد إلى مفارقتها ديارها وأهلها ، وأموالها طلبًا للعلم ، وهي مفارقة حسية ومعنوية ، بحيثُ لا يكون في قلبِه تعلق بما فارقه من بلد وولد وأهلٍ ومالٍ وراحةٍ؟

---

(١) ورواه أحمد والنسائيّ والدارمي ، والحاكم في المستدرك وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن أبي داود . حديث رقم (٢٥٠٤) وصحيح وضعيف سنن النسائي . حديث رقم (٣٠٩٦) وفي غيرهما .

إن تذكر ذلك في رحلة طلب العلم لذو أثرٍ حميدٍ بالغ بطلبِه وحسن تحصِيلِه وتوثيقهِ وفقهه ، واستثمارِه .

* * *

وتبصّر قولَ أبي يوسف (من أصحابِه) لم يقل من تلاميذه ، لأمرين رئيسين :

الأول : أنَّ تلاميذَ الإمام جدٌّ كثير وأصحابه منهم هم الّذين لا يفارقون مجلس علمِه ، فما كلٌّ تلميذ له بصاحب .

والآخر : أنّه كان يعاملهم معاملة الصاحبِ صَاحبه ، من رحمته بهم وشفقته عليْهم وديموميّة رعايته لهم وتفقد أحوالهم ، فهو يرعَى فيهم حقّ الصّحبة فوق حق التلمذة .

كذلك كان الإمام أبو حنيفة .

فهل لأحدٍ من صعاليك العلمانيّين وكلُّ علماني صُعلوك في باب العلمِ أن يقول عن أئمّتِنا بل عن الصحابة : هم رجالٌ ونحن رجال .

كأنّي بهم لا يعرفون معنى الرُّجولةِ مِن غباءٍ آخِذٍ بهم ، أوْ مِن أنَّهم ما رأتْ أعينهم فِي دُورهم وبيئاتهم ومجتمعاتهم رجلاً ، فظنّوا كلَّ ذكرٍ رجلا .

ذلك هـــو السِّيــاقُ المقاميّ الّذي جــاءت فيه الوصِيّــةُ مِن أبي حنيفة لأصحابه .

* * *

الفصل الأول

التوطئة للوصيّة

- استهلال الوصية .
- بيان ما فَعَلَ لهم .
- بيان شهادتِه لهم .

المبحث الأول

فقه استهلالِ الوصيّة

رأس وصيّة أبي حنيفة إعرابُه عن منزلة أصحابه في قلبِه :

« أَنْتَمْ مَسَارُّ قَلْبِي ، وَجِلاءُ حُزْنِي »

حين يسمعُ التلاميذُ من شيخهم هذه الكلمة النّور ماذا يبقَى فيهم من رغبةٍ عن العلم ورغبَةٍ عن مجلسِ شيخِهم؟

إنّها الكلمة التي تشحذ العزائم ، وتُبين عن عظيم رغبة الشيخِ في نفع تلامِيذه ، ورغبتِه في أن يَستودع ما مَعه مِن العلمِ والفهم في صُدورهم . وكيف أنّه غدا يستشعر أنّه ليس هو بالمتفضّل عليهم ، بل هم الذين غَدَوا متفضّلين عليْه بما لا قِبلَ له أن يحوزه لو أنفق كلَّ ما ملكتْ يمينه من متاعِ الدّنيا .

مَنْ ذا الذي بِمَلكِه أن يَحوزَ بما مَلك مسرَّةَ قلبٍ ، وجلاءَ حُزنٍ .

حين يَسمعُ التلميذُ من شيخِه أنَّ مقدِمَه عليْه ومَجلِسه بيْن يديه يذهبُ حُزن قلبه ، ويُوفد المسرَّةَ إليْه يستحيل طلبه العلم عليْه هو قرة العينِ ، وتكون الدُّنيا بما فيها لا تعدل شيئًا في منظور هذا .

كذلك يُقيمُ الشَّيخُ في صدور تلاميذه الاستمتاع بطلبِ العلم وخدمتِه . طلبُ العلم من أشق الأعمالِ على النّفوس ، ولذا يحتاج النَّاسُ فيه ما يُغري بِه .

وقد كان من فقه الإمام البخاري أن أوردَ ما رواه بسنده عَنْ أَنَس عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ «يَسِّرُوا وَلاَ تُعَسِّرُوا ، وَبَشِّرُوا وَلاَ تُنَفِّرُوا» . في بابِ العلم وفي باب الأدب .

وهذا من البخاري بيان أنّ هذا التَّيسيرَ والتَّبشيرَ أحقُّ أمرٍ به هو طلب العلمِ والأدب ، فهذان إذا ما تيسَّرت السَّبيل إليهما ومُهِّدت الطرق إليهما ، فغدا النّاس في ثبجِهِ أفواجًا فإنّ كلّ أمر من أمور حياتهم سيكون قائمًا على خالصِ العلم ووثيقه ، وكامل الأدبِ وشريفه ، فلا تجدُ منهم شيئًا إلا وهو منضبطٌ بميزان العلم الصَّحيح ، ومتحلّي بالأدبِ الجميل .

كذلك كان فقه البخاري ، فهو في إحسان تصنيفِه الأحاديث في أبواب صحيحه كان أوّل مفسّر له . وكلُّ مُحسِنٍ النَّظرَ في صَحيحِ البُخاريّ يُدرك أنّ فقهه قائمٌ في تبويبه الأحاديثَ وترجمته أبوابَه .

ومن ثَم نفهم وجهًا من وجوه المعنى في قَولِه تعالى :

﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ (آل عمران:٧٩)

فالربّاني من معانيه الّذي يربّي النَّاس بصغار العلم إلى أن يبلغ بها عويصها .

وهذا لا يكون إلا بعظيم من الحكمةِ وسعةِ الصدر ومحبة الخير لتلاميذه ، فيرى لهم عليْه من الفضلِ ما يُعادلُ ما له عليهم منه ، فلولاهم ما كان معلمًا النّاسَ الخير ، ولما حاز نعمة صلاة الله تعالى وملائكته ومن في السمواتِ والأرضِ عليْه ، وتلك التي مَن حرمها فقد حرم الخيرَ كلّه .

في ضوء هذا نفهم حكمة أبي حنيفة في استهلالِه وصاته بهذه الكلمة الشّفاءِ ، الكلمةِ النّورِ ، الكلمةِ المتدفّقةِ بِفَتِيّ العَزم في قلوب تلاميذه . :

«أَنْتَمْ مَسَارٌّ قَلْبِي ، وَجِلاءُ حُزْنِي»

لم يشأ أبو حنيفة أن يقولَ لهم : « أنتُمْ مَسارّ قلبي » ويسكت ، بل جمع إليها : « جِلاءُ حُزْنِي » ليبين لهم أنَـهم لم يحدثوا لقلبه

مسَّرة إذا انتهت عاد الحزنُ إلى قلبِه ، كلا إنّهم ليدخلون في قلبه مسرّة لا يكونُ معه للحزن بقاءٌ فِيه ، ولا سبيل له إليْه من بعدُ .

هم الأمَنَة من أن يعرفَ الحزنُ إلى قلبِه مَسربًا .

هم الأمان من الحزن الذي لا يثمرِ قربًا إلى الله تعالى .

ولهذا بدأ بقوله : « أنتمْ مسارّ قلبِي » بدأ بما هو جامعٌ لمطاردة الحزن واحتلال القلبِ محلّه .

لو بدأ بقولِه : « جَلاء الحُزن » لتُوهِّم أنّه بِهم غيرُ حزين ، وليس بلازمٍ أن يكون بِهم مسروراً ، فجعلهم الجامعين لقلبِه الأمرينِ معًا .

وغير خفيّ أنَّ من كان كأبي حنيفة لا يكون سرورُه بما تُسرُّ بِه الدَّهماء . إنَّ ما يُسرُّ به الرِّجالُ من أهلِ الله تعالى ورثةُ الأنبياءِ ، لن يكونَ أمرًا مِن أمورِ الدّنيا التي لاتزن عند الله تعالى جناح بعوضَة . ولا يكونُ حزنُه مِن جنسِ مَا تَحزَنُ به الدّهماءُ فمثل هذا لا يلتفِت إليه قلبُه فكيف يحزنُ به؟!!

كلَّ هذا يُبيِّنُ لك كيف كان يَرَى أبو حنيفة تلاميذَه ببصيرةٍ نافذَةٍ ، وبفراستِه الثاقبة الكاشِفةِ عن حقائق الأمر . أرأيت إلى أيِّ سماء من سماوات جليل البيان وجميله يصاعد بك استهلال أبي حنيفة خطابه تلاميذه ؟!

ويُفهم لزومًا من عبارة أبي حنيفة في تلاميذه أنّهم كانوا على قَدرٍ عَليّ من حُسن الأدبِ في طلبِ العلم تلقّيا ، وتأدبًا ؛ فَمثلُ أبي حنيفة لا يُسرّ قلبَه ويجلو حزنَه طالبُ علم لا يعدُو طلبه العلمَ حملَه وتحصيلَه ، ولا يستنبِطُ ما فيه من دقائق العلم ، ولا يستولدُ ما هو مكنونٌ في رحمِه ، ولا يثورُ دفائنه . فمزيَّة أبي حنيفة عن كثيرٍ من أقرانِه أنّه يستنبت ما هو مكنونٌ في الآياتِ والأحاديث من دفين المعاني ، ومثل أبي حنيفة لا يغمُّه شيءٌ مثلُ مَن لا يعدُو أن يكون خزانة ما يُنتجه الآخَرون . يأبى إلاّ أن يكونَ وعاءً أُترِعَ بمقالاتِ أهلِ العلم ، وليس له منها شيءْ . مثلُ هذا الطالب لا تقرّ به عينُ أبي حنيفة .

هذا الاستهلال من الإمام أبي حنيفة يَضَعُ في عنق طالب العلم مسؤولية أن يكون رافد إسعاد لشيخه إذ يجلس بيْن يديه يستقي منه العلم والحكمة ، وأن يكون الماحي بحسن تلقيه عنه كلَّ ما يمكن أن يحزُنَ به قلب العالم .

وحين يحرصُ طالبُ العلم أن يكون رافدَ مسرَّةٍ وماحيَ حزن يكون له من هذا ما يجعل رزقه من شحه وافرًا وجليلاً ، فإنَّ انشراح صدر الشيخ في مجلس العلم بطلابه عاملٌ فتيٌّ من عوامل توالد الأفكار وتغازرها وفتوة البصيرة ونفاذها واقتدارها على رؤية

الأشياء على حقيقتها ، فتدفق الشيخ بالعلم والحكمة إنما هو من رزق تلاميذه .

ولا ينقصُ رزقهم هذا منه كمثل ضيق صدر الشيخ بتلاميذه حين يراهم غير مقبلين على العلم وعلى حسن خدمة هذا العلم أو يراهم معلين شأن غير طلبه وخدمته عليـه ، فيحقرون بذلك ما عظم الله تعالى ويعظمون ما حقَّر الله تعالى .

حين يجتهد طلاب العلم على أن يكونوا مسارَّ قلب شيخهم وجلاء حزنه فإنهم بذلك يكون لهم نصيب من فضل تجهيز الغازي في سبيل الله تعالى ومن متوبته .

أليس العالم في مجلس العلم يجاهد بالكلمة « النّور » يُبدّد بها ظلمة الجهل والحمق والاستخذاء النفسيّ الذي يركبه الفراعين فينا ليستذلوا (فاستخف قومه فأطاعوه) فينعق فيهم « لا تسمعوا لغيري » فلا يتمعر وجه واحدٍ منهم لهذا الاستعاج .

أليس العالم في مجلس العلم يجاهد بالكلمة « السيف » يقطع به عنق الباطل وأهله .

فإذا ما أعان طالبُ العلم شيخه على ذلك بحسن تلقيه وأدبه كما مُعينًا للمجاهد في سبيل الله تعالى وبيان النبوة هادٍ إلى أنْ من جهَّزَ غازيًا فقد غزا .

المبحث الثاني

فقه ما صَنع أبو حنيفةَ لتلاميذِه

ويبني أبو حنيفة على بيان منزلة تلاميذه عنده ما كان لهم منه :

«وَأَسْرَجْتُ لَكُمُ الْفِقْهَ وَأَلْجَمْتُهُ ، وَقَدْ تَرَكْتُ النَّاسَ يَطَؤونَ أَعْقَابَكُمْ ، وَيَلْتَمِسُونَ أَلْفَاظَكُمْ»

في هذا بيانٌ من أبي حنفية لما اجتهدَ فِي أن يُزجِيهِ إلى تلاميذه ليكونُوا أهلاً لأن يَحملوا العلم ويخـدموه ، ويخدِموا أمتهم .

أوجز فعله لهم في أمرين ، ورتب عليه أمرين :

أوجز فعله في قوله : أَسْرَجْتُ لَكُمُ الْفِقْهَ وَأَلْجَمْتُهُ .

وهذا من عليِّ البيان ووجيزِه المُخَلِّصّ أعمالاً جسامًا لا تُنْجزُ إلا في زمنٍ مديدٍ وبِجهدٍ جهيد ، لكنّه لم يَشَأ أن يَبسُطَ العبارةَ عنه كما بسطَ الفعل ومدّه ، وذلك شأن الكبار الأماجد ، ذلك أنـه يخاطبُ من عاشَ الفعلِ ، فهُوَ بِهِ جِدٌّ عليمٍ ، وهو في تلقِي وجيز

البيان جدّ بليغ ، مقتدرٌ على نثرِ المكنون ، وكشفِ المستورِ ، فكان بيانُه متآخيًا مع حالِ تلاميذه ، ومع حالِه ماجدًا ، فما هو بالذي يمتنّ ، وإنّما هو قائلٌ ذلك دَلالةً لهم على أنَّهم قد هيّئت لهم سُبلُ الفقه والفهم وأدواته ، فما عليهم إلا أن يعزمِوا أمرَهم ، وأن يمتطوا جيادَهم . أرأيت إلى أيّ أفق من جليل البيان وجميله تتسامى عبارة أبي حنيفة ؟!

وعبارة أبي حنيفة هنا جامعةٌ بيْن فقهين :

● فقه النزول : فقه ما نزّل من الوحي قُرآنًا وسنّة (فقه البيان ـ النّص) وهذا يفتقرُ صاحبه إلى ذكاء واقتدارٍ على التغوّر في البيان ، وتثويرِ ما هو مكنونٌ فيه ، وهذا يصلُح بهٍ صَاحبُه لأن يكونَ فقيهًا .

● وفقه التنزيل (فقه التطبيق) وهو أن يكون مليكًا لمهارات وأدوات وخبراتٍ يقتدرُ بها على فقه الواقعة التي بيْن يديه ، وعلى إنزالها على وفق ما في بيانِ الوحي من كتابِ وسنةٍ من معانِي الهدى . وهذا يحتاج إلى جليلِ الحكمةِ . وهذا ما به يكون الفقيه مفتيًا وقاضِيًا .

وما كلُّ فقيه بمالكٍ لها ، فكم مِن جامعٍ لمذاهبِ العلماء وآرائهم في القضايا والمسائل جليلها ودقيقها ، قريبها وبعيدها ،

شارِدها وواردها ثُمَّ هُو لا يملكُ من الحكمةِ التي تجعله يُنزِلُ الواقعَ على ما عنـده من العلم ، فتراه يقُـول في سياقٍ ما يُفسِدُ ولا يُصلِح .

وهذا ما نحن الآن مبتلون به ممّن يلبسون لباسَ أهلِ العلمِ ، ويخرجون علينا صباحَ مساءَ في وسائل الإعلامِ على تنوعها فتسمع منهم ما يُفسِدُ الحياةَ ولا يُصلحها .

ولَمْ يسْمَع النَّاسُ تناقضاتٍ بيْن مقالات أولئك في المسألة الواحدة كمثل ما يسمعون الآن . وما هذا إلاّ أن َمن يتكلم قد ملك شيئًا من كلامِ أهلِ العلمِ ، ولم يملك شَرْوَ نقيرٍ من الحكمة (العقل) .

ومَن كان علمُه أكبرَ مِن عقلِه أفسد ولم يُصلح .

ومَن كان عقله (حكمته) أكبرَ من علمِه كان المصلح الذي به تستقِيم حركةُ الحياةِ وتجري إلى غايتها غير عاثرة في كديةٍ غير مجازةٍ .

فنحنُ أحوج ما نكونُ إلى أن نتعلَّم التعقل والحكمة أكثر من حاجتنا إلى أن نتعلَّم العلم .

العلم قائمٌ في بطونَ الأسفارِ كلٌّ يستطيع أن يقرأ وأن يحفظ ، وأن يتصايح به على المنابر وفي وسائل الإعلام (بوق الشيطان) ،

وليستِ الحكمة والتعقّل في بطون الأسفار إنما يتعلمها التلاميذ من الجلوسِ بين يدي الأشياخ ، ومراقبةِ أحوالِهم ، ورصد تصرفاتهم والتفكّر فيها ، ومن هنا كان فضلُ العلمِ وخيرُه بالمزاحمة في مجالسِ العلماء ، وليس بقراءة الأسفارِ وحدها . فعلومُ الإسلام جميعها علوم تلقّ ثم قراءةٍ .

﴿ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (البقرة:٢٦٩)

ولذلك كان من دعاء سيدنا إبراهيم عليْه الصّلاةُ والسلام قوله :

﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

(البقرة:١٢٩)

وكان من امتنانِ الله تعالى علينا أن استجاب له عليْه الصّلاةُ والسلام :

﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ (آل عمران:١٦٤)

﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ (الجمعة:٢)

أبو حنيفة أنبأ تلاميذه أنّـه هيّأَ لهم الأمرين معًا :

● هيَّأ لهم فقه ما نُزّل من الكتاب والسنة : (أسْرَجْتُ لَكُمْ الفِقهَ) .

● وهيّأ لهم فقه التنزيل : تنزيل الواقع على العلم (ألْجمتُه) .

فإلجام الفقه هو الحكمة التي تضبط تنزيل الواقعِ على ما في الفقه من الهدى .

اصطفى أبو حنيفة هذه الصورة الاستعارية : أَسْرَجْتُ لَكُمُ الْفِقْهَ وَأَلْجَمْتُهُ .

لك أن تجعل مناط الاستعارة قوله (الفقه) حيثُ صوره في صُورة جوادٍ فتيّ أعدّ للركـوبِ وهيّئَ لأن يُعتلى متنُه ، وأُعـدَّ له ما يمكن لراكبِه أن يتحكَّم في حركتِه وفق ما يتطلبُ الموقف .

ولك أن تجعلَ مناط الاستِعارة هو الفعل (أسرجت وألجمت): جعل ما كان منه من تيسير الفقه وتهيئته للتلقّي والفهم بمثَابةِ إسراجِ الجوادِ وتهيئته للركوبِ .

وجعل ضبطه أصولَ الفقه وقواعده ليتحكم في استنباطِ الأحكام من الكِتابِ والسُّنة وإنزال الواقع على ما فيهما من معاني الهدى ، وهو ما يسمى بفقه تنزيل الوحي على الواقع بمثابةِ إلجام الجواد وإحكام أمرِه ، فلا يبقّى للفارسِ إلا أن يمتطيّ الجواد ، ويقبضَ على لجامِه يصرفه كيف ما شاء . .

وأنتَ إذا ما نظرتَ في مَساقِ القولِ وعلِمتَ أنّ أبا حنيفةَ عامِدٌ إلى بيانِ ما فعلَ لتلاميذِه رأيتَ أنَّ الأقرب أنْ تجعلَ الاستعارةَ في فعلِه ، أيْ أنْ تجعلَ الاستعارةَ في قوله : (أَسرَجْتُ وأَلجَمْتُ) فتكونُ الاستعارةُ تبعيّة .

* * *

وترتب على هذا الذي أزجاه أبو حنيفة لتلاميذِه أمران

الأمرِ الأولِ : « وَقَدْ تَركْتُ النَّاسَ يطَؤونَ أَعْقَابَكُمْ »

والأمر الآخر : « وَيَلْتَمِسُونَ أَلْفَاظَكُمْ »

هذان هُما ثمرةُ فعلِ أبي حنيفة لتلاميذه وفعلِه فيهم .

بيانُ الأمر الأول : « وَقَدْ تَركْتُ النَّاسَ يطَؤونَ أَعْقَابَكُمْ »

أقامَهم مقامًا جعلَ النّاسَ يَتَتبّعون مواقعَ أقدامِ أولئك التَّلاميذ ، يَقتدُون بهم ثِقةً فِي صوابِ نظرِهم ، ونفاذِ بصيرتهم وحكمة صَنيعهم ومؤانسة فقههم الواقعَ الذي هم القائمون فيه .

الشّأنُ أن يكون فهم العالم وإفهامه كما هومرتبطٌ بالوحي أصلاً ضابطًا هو أيضا بالمرتبط بواقِعهم وحركةِ حياتهم ، تنزيلاً وتطبيقًا واستثمارًا ، فلا يُحدِّثون عمّا لا يكونون قائمين فيه وبه .

فرقٌ بعيد بيْن حديثِ الشّيخ في تلاميذه يعلّمهم العلمَ والحكمةَ وحديثه في الناس يُبين لهم حكم الشَّرع فيما تجرِي به الحياة ، وفيما يُمارسُونه صَباح مساء .

الفقيهُ يكلّم تلاميذه مَثلاً في أحكامِ الرقّ والعتقِ في زماننا ، ولكنّه من الحُمق أن يكلّم النَّاس في هَذَا .

الفقيهُ فِي مجلسِ العلم بيْن تلاميذه يتدارسُ معهُم في بابِ العقيدة مثلاً «أضلولة القول بخلقِ القرآن» ومداخلها ومخارجها والفرق بين مقالةِ الأشاعرة فيها ومقالةِ المعتزلة ، ويبسط الشّبَهَ ويُفنّدها ، ويُبين عن الحق وبراهينه ، لكنّه إنْ نَبَسَ بِبِنْتِ شفةٍ في هذا بيْن النَّاسِ فإنما هو رضيع حماقةٍ ومؤذِّن فتنةِ .

النَّاسُ إنّما يقتدون بِمَن كان ذا عِلم وحِكمةٍ ، وكانت حِكمتُه فوقَ عِلمِه . وهذا يُشيرُ إلى أنّ أبا حنيفة علَّم تلاميذه الأمرين معًا : العلمَ والحِكمةَ .

وكأنّه يحثُهم إلى أنْ يكونَ هذا مِنهاجهم في تلاميذِهم، يَعتَنُون بِتعلِيمهم العقلَ والحِكمة ، كمثل ما يُعنوْن بتعليمهم العِلم .

ومثل هذا يوجبُ أن تكونَ لطلابِ العلمِ مجالسَ خاصّة ، يُحاجزُ عنها العامَّة ، فلا تصلُح في زماننا هذا أن تُعقدَ فِي المساجدِ التي لا يحجر على مسلمٍ أن يمكث فيها ، وأن يَحضر ما يقال فيها .

مجالسُ طلبِ العلم إنما تكون في محلٍّ لا يؤذن فيه إلا لمن كان أهلاً لأن يسمعَ ، وأن يُحسن التلقّي .

وهذا يهدي إلى أنّ وسائلَ الإعلامِ لا تصلحُ لأن تكونَ بديلاً عن مجالسِ طلبِ العلم في المعاهدِ والجامعات ، بل هي تصلحُ لتثقيفِ النّاسِ وتبيين الأحكام الخاصّة بحركةِ حياتِهم . وتبيين أصول الأدبِ مع الله تعالى .

* * *

وبيانُ الأمر الآخر : « وَيَلْتَمِسُونَ أَلْفَاظَكُمْ » فيه إِشارةٌ إلى أن مجرّد حسن التلقّي فهمًا والاجتهاد فيه لا يكفِي أن يكونَ المرْءُ معه ممَّا يُنتفعُ بِه ، فهذا شطرُ العِلم والحكمةِ ، وهو ما يُعرف بمهارة الفهم .

وثَم شطرٌ آخرُ جِدّ جليلٍ هو الّذي يجعلُ للشَّطرِ الأوَّلِ ثمَرةً يتغّذَي بها ويُسْتَطَبّ . إنّها مهارةُ الإفهام .

فحولة الفهم وفتوّتُه أولاً ثمّ حسن الإفهامِ ودقته ثانيًا هما اللذان يجعلان من طالبِ العلم نافعًا أمته ، ويجعلانه مِمّن يُعلّم النّاسَ الخيرَ .

تعليمُ النّاس بحاجةٍ إلى يكونَ معلّمهم مليكًا للمهارتين معًا : مهارةِ الفهمِ ومهارةِ الإفهام .

وأنتَ تسمعُ قولّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى :

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾ (الرحمن:١-٤)

أقامَ الامتنان بنعمةِ خلقِ الإنسان بيْن الامتنان بنعمتين : نعمة تعليم القُرآن ونعمة تعليم البيان .

مِن وجُوه المعنى في قولِه تعالى : (علّم القُرآن) علّم مَصدَرَ العِلم وحسن تلقيه الفهمَ عنه ، وهذا يلتفتُ إلى قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى :

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ (القمر:١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠) [١]

---

(١) في هذا إشارة إلى شابكةٍ من شوابك سورة «الرحمن» بسورة «القمر» وهل لك إلى أن تلتفت إلى العلاقة بين تسمية السورة بـ (القمر) وورودِ قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ أربع مراتٍ ؟.

فتعليمه هو تيسيره للذّكر : للتلاوة والفهم . . .

وقوله : (علَّمه البيان) من وجوه المعنى علّمه الإبانة عمَّا في صدره .

وممَّا في صدرِه ما تعلَّمه من القرآن ، وهو لن يتعلم البيان إفهامًا لغيرِه إلاّ إذا كان مقتدرًا على أنْ يفهمَ عن غيرِهِ ، فإنّ الإفهامَ من الفَهمِ ، وإن الكلامَ تصويرًا عمَّا في النّفس لَمِن الكلامِ تصوّرًا وفهمًا لما يسمعُ ويقرأُ ، فمَن لَمْ يُحسنِ الفهم لن يُحسِن الإفهام .

فهو امتنانٌ بنعمَتيْن : بنِعمةِ الفَهمِ : (علّم القُـرآن) وبنعمة الإفهامِ : (علَّمَهُ البيانُ)

فقولُ أبي حنيفة : «وَيَلْتَمِسُونَ أَلْفَاظَكُمْ» فيه دلالة على أنـّه كان يعلمهم بلسانِ حالِه وبلسانِ مقالِه كيف يعبّرون عمّا فهمُوا تعبيرًا محكمًا تعبيرًا يجتمعُ فيه حُسنُ الدَّلالة بما يقُوم على جنباتِه معالم تهدِي إلى المُرادِ وإن دقّ ولطفَ .

وتمامُ الدَّلالةِ حتَّى لا يكونَ البيان عاجزًا عَن حملِ كلِّ ما فِي الفُؤاد من دقائقِ العلم ، فيكون بحسنِ الدلالةِ وتمامِها بيانًا صادقًا وأمينًا .

وإحكامِ الدلالةِ تبرّجها ، فلا يكونُ بيانًا يحتملُ وجوهًا من المعنى لا يريدُها المتكلمْ ، فمن حقِّ معانيك عليْك أنْ لا تجعلَها فِي صُورة تجعلُ السَّامع يمكن أنْ يَفهم منها غيرَ المراد ، لأنّها ليست مُحكمة الدلالةِ على المعنى ، بل محتملة لوجوه لا يريدُها المتكلم .

وإحصانُ الدلالةِ وإحكامها وتبرجها إنّما يكونُ بأمورٍ عديدة منها حسنُ اختيار الكلمة ومقامِها وصياغة جملتها واختيار سِباقِها ولحاقها ، واكتنافها بما يجلّيها من القرآئن المقاليّة والحالية ، ويحكم فقه المراد منها . . .

كلُّ ذلِك إنّما هُو حَقُّ المَعنى على صَانعِه أولاً ، وحقّ السَّامعِ على المتكلّم ثانيًا .

فقولُهُ : «يَلتمسون ألفاظكم» هادٍ إلى أنّهم قد علموا حسن الإبانة وإحكام الدلالة[1] .

---

(١) لا يظننّ ظانّ أنّي أزعمُ أن أبا حنيفةَ كان يعقدُ لتلاميذه مجالس علم يتدارسون فيها أصول علم البلاغةِ العربي وقواعده وتطبيقاتِه ، فإن شيخ البلاغيين والنقاد العرب أبا عثمان الجاحظ (١٥٠-٢٥٥هـ) ولد في العام الذي مات فيه أبو حنيفة . وإنّما أذهب إلى أنَّ أبا حنيفة كان حريصًا على تحرير مدلولات الكلم والكلام ، ويَمِيزُ بين صُورِها ، ويُبين عن الفُروق بين قولِ وقولٍ ، ومصطلحٍ ومصطلحٍ .

وهذا شطرُ العلم .

وكأنّ أبا حنيفة كان يعلم تلاميذه بلسانِ الحال عند بيانِه عن معانيه أصول بلاغة العالِم والفقيه ، وهي أصول ما تزال تطالب علماء علـم البلاغة العربي وطلابَه بحقها عليهم ، فإنّهم شُغلوا عنها ، حتّى ظنّ الناشئة من طلابِ علم بلاغةِ العربيةِ أنّـه ليس هذا البيان من أسفارِ الفقهاءِ فيه مشغلةٌ للعقلِ البلاغيّ ، حسبانًا منهم أن البلاغةَ لا تكون إلا حيثُ يكون التخيّل والتخييل ، وحيثُ تكون الاستعارة والتجنيس ، على الرَّغـم مِن أنَّ أبا الحسن علي ابن عيسى الرّمّانيّ (٢٩٦هـ - ٣٨٦هـ) جعل حقيقةَ البلاغة في « إيصالِ المعنَى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ . »[1] وهذا لا يلزم أن يكون فيه استعارة وتجنيس وتسجيعٍ ، وتخييلٍ ، وتمثيلٍ . . . فكم مِن آيةٍ في كتابِ الله تعالى ، ومن حديثٍ في بيان النبيّ صَلوات اللهِ وسلامُه عليْه وعلى آلِه وصحبه ليس فيه من هذا شيْءٌ ، إنّما فيه حُسنُ الدَّلالة على المعنى وتمامها وإحكامها ،

---

(١) النكت في إعجاز القرآن . لأبي الحسن الرّمّانيّ . مطبوع ضمن : ثلاث رسائل في إعجاز القرآن [سلسلة : ذخائر العرب (١٦)] تحقيق : محمد خلف الله ، دكتور محمد زغلول سلام
نشر : دار المعـارف . القـاهرة . الطبعـة الثالثـة ، سـنة ١٩٧٦م . ص : ٧٥، ٧٦ .

ومطابقتها لمقتضى الحال ظاهرِه أو باطنه ، فيصِلُ المَعنى إلى القلبِ ويتمكّن فيه ، ويتوطَّن ، ثُمَّ يفعلُ فِيه ما يُرادُ للبيان أن يفعلَ فيه وبِه .

كان أبو حنيفة في بيانِه بليغًا ، وآية هذا ما بيْن يديك من وصيّتِه . إنك لترى فيه معالمِ الحُسن مكينةً فتيّة ، فهي عندِي من أرفع نماذج أدبِ الوصايا ، الّذي هو بابٌ عظيمٌ مِن أبوابِ الأدبِ الجليل في معانيه ، والجميلِ في مبانيه ، الفتيّ في أثرِه .

قوله : « وَقَدْ تَرَكْتُ النَّاسَ يَطَؤونَ أَعْقَابَكُمْ يَلتمسون ألفاظكم » هو كناية بالغة الإبانةٍ عما صَار إليه أولئك التلاميذ من جهةٍ ، وعمَّا كانوا عليْهِ من التّهيّؤ لأن يستجِيبوا لفعلِ شيخهم فيهم ، وهذا من جليلِ إكرامِ التلميذ لشيخه ، أن يُهيّئَ نفسَه لِحسن فعلِ غيثِ شيخِه فيه ، لأنَّ في هذا مِن المَسرَّةِ للشّيخ ما فيه ، وفيه حفزٌ للشيخِ على أن يُجاهد ويستفرغَ جهدَه في أن يُزجِي إليْهم فِي جلاءٍ كلَّ دقِيقةٍ ولطيفةٍ وطريفةٍ ، وأن يسوقَ إليْهم فِي رفقٍ كلَّ شاردةٍ وآبِدة .

وكلُّ مجلس علمٍ كان فيه طالبٌ نابِهٌ كان ذلك الطّالبُ نعمةً على شيخِه، بل كان هذا الطالبُ جزءًا مِن مثوبةِ الله تعالى لشيخِهِ ، عجَّلها الله تعالى له ، فينشرحُ صدرُ الشيخ ، ويعلمُ أنّ كريمَ نسبِه

لن ينقطعَ إلى يومِ القيامةِ ، وستبقَى سحائبُ الحسناتِ تهطلِ في صَحائفه إلى يومِ الدّين ما كان في مجلسِه مثل هذا الفتَى .

وكلّ عالمٍ بِكتابِ الله تعالى وبِسنّةِ رسُولِه صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم يقُومُ في صدره ما رواه مسلمٌ في كتاب (الوصيّة) من صَحيحِه بسنده عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلاَّ مِنْ ثَلاَثَةٍ :

إِلاَّ مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ ».

هذا الحديثُ النبوي من عليّ البيان الوجيز الجامع لكل خيرٍ ، فهوأنموذج جليل لما أنعم الله تعالى به على نبيه سيدنا محمدُ صَلّى اللهُ علَيْهِ وعَلى آلِه وَصَحبِه وسلّم من نعمة جوامع الكلم :

في هذا الحديثِ من الإبانة عن عوامل إقامة المجتمعِ المسلم في أمنَةٍ من مذلةِ الفقر ، ومن صِناعةِ الشّر ، ومن غوائلِ الجهلِ .

ولو أنّ كلَّ مُسلم أحسن فقه هذا الحديث وأحسن الثقة به ، والأخذ به ، لما وجدت في هذا المجتمعِ فقيراً معوزًا ، فأمانه الصدقةُ الجارية ، ولما وجدت فيه شرًّا ، فمهلكتُه في الولد الصالح ، ولما وجدت جاهلا ، فَأمانه منه العلم النافع .

* * *

المبحث الثالث

فقه شهادتِه لهم

مِن بعدِ أن أبانَ أبو حنيفة ما كانَ منه لتلاميذِه أبانَ عمَّا صار إليْه أولئك التلاميذُ وشَهادتِه لَهم :

«مَا مِنْكُمْ وَاحِدٌ إِلا وَهُوَ يَصْلُحُ لِلْقَضَاءِ»

قَضَى بأنّهم جميعًا قد بلغُوا مبلغًا تجاوزُوا به طَورَ الفقه ، وطَورَ الفتيا إلى ما هو أخطرُ منه : طورِ القضاءِ بيْن المتخاصمين .

الشَّأنُ في القاضِي أن لا يكُونَ فقيهًا أو مفتيًا فحسبُ ، بل الشّأنُ أنْ يكونَ له مِن الفِراسةِ النافذة السابغة وَمن فُتوّة البَصيرة ومنْ سُرعةِ البَديهة ، و منْ نفاذِ الحيلة ، ما يقتدر به على أن يميزَ الحقَّ من الباطلِ ، وأَن يعرفَ مكامن الشَّيطان في حجج المتخاصمين . فلا يغترّ بطلاقةِ لسان ، ولا بتدفّق بيان ولا بجهارةِ صوت ، ولا برباطة جأشٍ ، فكلُّ ذلك يُتقُنه الظّلمةُ الفجرة ، ويتوارثونَه جيلاً بعد جيلٍ . فهل تقع عينك اليوم على قاضٍ

تجاوز درجة الفقيه في كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم بل تجاوز درجة المفتي ؟ دلني عليه لأستسقى به الغمام .

أعلمهم أبو حنيفة أنّه قد اطمأن إلى ما صاروا إليه من الفقه والفهمِ ، وحسن البيانِ وحسنَ البصر ما جعلَ كلّ واحدٍ منهم أهلاً لأن يتبوّء مجلسَ القضاءِ ، فيقضي بما أنزل الله تعالى ، فينشر العدلَ .

وهذه لا يقولها أبو حنيفة على مسمعٍ من تلاميذه إلا وقد اطمأن قلبُه وعقله أن كل واحدٍ منهم قد ملك ميزانَ العدل في عقلِه وقلبِه ونفسِه ، وأن كل عوادي الحياة لا تستطيعُ أنْ يعبث بهذا الميزان ، لأنه لو ظن أن ذلك يُمكن أن يكون لما شهد له بأنَّه يصلح للقضاءِ .

ما يكون لمن كان في منزلِ أبي حنيفة من العلم والورعِ والخوفِ من الله تعالى ـ أحسبه كذلك ولا أزكيه على الله جَلَّ جَلالُهُ ـ لأن يشهدَ بما لا يكون مهيمنًا عليه علمًا نافذًا سابغًا .

شهد لهم بهذا وهو الفقيه المؤسّس للقول العلمي في صِفاتِ القاضي وأدبِه ، وهو بابٌ من الفقه جد جليلٍ[1] .

---

(١) هل لك أن تجود على نفسِك ببعضِ عمرك فتقرأ فصل (كتاب أدب القاضي) في كتاب المبسوط لشمس الأئمة السرخسي (ت : ٤٨٣هـ) . نشر دار المعرفة ـ بيروت . عام ١٤١٤هـ ١٦/٥٩-١١١ . ==

ولمّا كان هذا النبأُ شهادةً يشهد بها أبو حنيفة لتلاميذه كان مقتضِيًا أن تكونَ العبارةُ عنه عبارةً مقتدرةً على عظيمِ التوكيد والتقريرِ لما تتطلبه الشهادة من وثاقةٍ وصحة ، وقوة في الدَّلالة ووضوح ، فجاء بيانُه في أسلوبِ النفي والاستثناءِ .

وهو من الأساليب الفتية دلالتها على التوكيد

وأبو حنيفة في شَهادتِه هذه لتلاميذه لم يذهب إلى أن يحصر الخبرَ فيهم (يصلح للقضاءِ) لا على سبيلِ الحقيقة أو المبالغة ، وينفي ذلك عن غيرِهم ، ذلك أنَّه لا يقُول بمفهوم المخالفَة ،

==أو في كتاب تحفة الفقهاء ، لعلاء الدين السمرقندي (ت : ٥٤٠هـ). نشر : دار الكتب العلمية ، بيروت ـ الطبعة الثانية عام : ١٤١٤ هـ . ٣/٣٦٩- ٣٧٤ .

أو كتاب : بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع ، لعلاء الدين الكاساني الحنفي (ت : ٥٨٧هـ) نشر : دار الكتب العلمية . بيروت . الطبعة الثانية عام : ١٤٠٦هـ . ٧/٢-١٧ . أو كتاب الاختيار لتعليل المختار لأبي الفضل : عبد الله بن محمود بن مودود الموصلي (ت : ٦٨٣هـ) تعليق محمود أبو دقيقة . نشر مطبعة الحلبي ـ القاهرة . نشر عام : ١٣٥٦ هـ . ٢/٨٢-٩٤ .

إنك إن فعلت علمت أين قضاؤنا وقضاتنا .

ولا يــذهبُ إلى أنّ الاســتثناء (النحــوي) يُفيــد التخصــيص الحصريّ[1]

وقوله : «مَا مِنْكُمْ وَاحِدٌ إِلا وَهُوَ يَصْلُحُ لِلْقَضَاءِ» يهدِي إلى أنـّه بلغ بهم منزلاً يجعلهم في طور يُمكنهم أن يكونوا في غنيةٍ عنه ، وأن يكونوا أهلا لأن يجتهدوا ، ويكون له من دقيقِ النظرِ وصحيحه ما يقرنُ إلى ما لشيخهم من الرأي والنظر والاجتهاد .

ويهدِي إلى أنـّه أحاطهم بما يَجْعَلُهم في أمنةٍ من معرةٍ التقليدِ واقتفاء ما ليسَ لهم بِه علمٌ محققٌ .

---

(١) أسلوب الاستثناء المتصل هو عند الأصوليين المتكلمين (المالكية ، والشافعية ، والحنابلة) مفيد للحصر والقصر ، أما الأصوليون الفقهاء : الحنفية فلا يقولون بإفادة الاستثناء (النحوي) الحصر ، فهم لا يقولون بما يُعرفُ بمفهومِ المخالفة .

الاستثناء عند الحنفية من بيانِ التغيير ، وليس من بيان التخصيص ، والإخراج ، فهم لا يسمون الاستثناء النحوي استثناء التحصيل .

وعندهم أسلوب الشرط استثناء ، وهو استثناء تعطيل .

ينظر : أصول الفقه للسرخسيّ الحنفي . تصحيح أبي الوفا الأفغاني . ط : دار الكتاب العربي . عام ١٣٧٢هـ . ٤١/٢ .

والتلـويح علـى توضـيح التنقـيح لصـدر الشـريعة تـأليف سعد الـدين التفتازاني . تحقيق : نجيب الماجد ، وحسين الماجـد . الطبعـة الأولى عام ١٤٢٦هـــ المكتبة العصرية . بيروت . ٥٥/٢ .

وتلك نعمة حين يسديها الشيخ إلى تلاميذه كان كمن أسدى إليهم حريتهم ، فالتقليد إنّما هو صورة من صور العبودية العقلية والفكرية ، وهي أنكى من عبوديّة الجسد ، فكمْ من مستعبدٍ جسدُه في القرونِ الأُوَل من الإسلامِ كان هو الكاملَ الحريَّةِ العقلية والفكرية والنفسيّة ؟

أتجدُ في زمانِك هذا مَن هو أكثرُ حريَّةً عقلية وفكرية من سيدنا بلال رضي الله عنه يوم كان عبدًا في ملك يمينِ كافرٍ .

لم يستطع هذا الكافرُ الذي يملكُ أن يبيع جسدَ سيّدنا بلال رضي الله عنه حيثُ يبع عَيْرَه أن يملك عقلَه وقلبَه ونفسَه .

كان سيّدنا بلالٌ رضي الله عنه حرًّا العقلِ والقلبِ والنَّفسِ والرَّوح فاتّخذَ لنفسِه سبيلَ الحقّ ، دون رضًا من سيدِه ومالكِه .

وكَم مِن حرٍّ جسدُه في عصرِك وهو عبدُ العقلِ والقلبِ والنّفسِ ، تتلاعبُ به القُوَى السّياسية ، وعصابة العلمانيين وسحرة إبليس ، فيسحبونه من أذنه على وجهه سحبَ الشّاةِ إلى المجزر ، وهو سادرٌ في غيّه وغبائه .

والإمام أبو حنيفة حين يقضِي بأنّ كلّ واحد من أولئك التلاميذ قد صار إلى هذا الذي ذكر إنّما يقَضِي لهم بأنـّهم أحقَّاءُ في أن يجتهدوا وأن يكونَ لكلٍّ رأيُه الذي يقرن برأي شيخه ، ويختار عليْه ويقدّم ، فإنّ الله تعالى يهبُ للولد ما لا يهب للوالد .

ألا تسمعُ قوله تعالى :

﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ (الأنبياء:٧٨-٧٩)

وهبَ لسيّدنا سُليمان من الفهمِ ما لم يهب لأبيه سيّدنا داود عليْهما الصلاةُ والسلام .

وروى البخاري في كتابِ العلم من صَحيحِه بسنده عَنْ عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجَرَةً لاَ يَسْقُطُ وَرَقُهَا ، وَهِىَ مَثَلُ الْمُسْلِمِ ، حَدِّثُونِي مَا هِيَ » . فَوَقَعَ النَّاسُ فِى شَجَرِ الْبَادِيَةِ ، وَوَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّـهَا النَّخْلَةُ .

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ : فَاسْتَحْيَيْتُ . فَقَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَخْبِرْنَا بِهَا . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ « هِي النَّخْلَةُ » .

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ ، فَحَدَّثْتُ أَبِى بِمَا وَقَعَ فِي نَفْسِي ، فَقَالَ : لأَنْ تَكُونَ قُلْتَهَا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ لِي كَذَا وَكَذَا .

* * *

الفصل الثاني

عمود الوصية

المبحث الأول : وصيته لهم بصيانة العلم عن الاستئجار

المبحث الثاني : المنهج عند إرغـام السـلطان العـالمَ علـى تـولِي القضاء

المبحث الثالث : مبطلات ولاية السلطان وحكم القاضِي

المبحث الأوّل

وصيته لهم بصِيانتهم العلم

لما أقام في سَمعهم شهادة التخرّج التي لا يعدلها شهادة تخرجٍ مثلها ، كان لزامًا أن يكشف لهم عن مسؤوليّة العالم إزاء ما معَه من العلم ، وأن يحمّله الوصيّة بصِيانةِ هذه النّعمة ، فقال :

« فَسَأَلْتُكُمْ بِاللَّهِ وَبِقَـدْرِ مَا وَهَبَ اللَّهُ لَكُـمْ مُنْ جَـلالَةِ الْعِلْـمِ مَا صُنْتُمُوهُ عَنْ ذَلِكَ الاسْتِئجَارِ » .

جاءت هذه الفاء لتفصح عن شرط تقديره إذا ما كنتم قد بلغتم ذلك المبلغ فأسألكم بالله . . . .

الاستهلالُ بسؤالهم بالله تعالى فيه من الإلزام لهم بالوفاءِ بما سألهم ، لما لهذا الذي سألهم ، وحمَّلهم القيامَ بِه من أهميةٍ بالغة فِي شأنِ العلم نفسِه ، وشأنهم هم ، ثُم مِن شأن الأمة نَفسِها .

ولكيما يُبين لهم عِظم ما وهبهم الله تعالى قال (وبما وهب الله لكم مِن جلالَةِ العلم)

والسُّؤال بغيرِ الله تعالى ليس كمثل الحلفِ بغيرِ الله جَلَّ جَلالُه، فقد يسألُ المسلمُ أخاه بالرَّحمِ التي بينهما ، ولا يعدّ هذا مِن الشّركِ الخفيّ بخلاف الاستحلافِ،فإنَّه لا يكونُ إلا بالله عَزَّ وعلا؛ لأنَّ في الاستحلافِ والحلفِ من البشر معنى الإشهادِ على صدق وصحة ما يقول ، وهذا لا يطلعُ عليْه إلا الله تعالى ، أمّا السّؤالُ فلا إشهاد فيه ، بل هو توسّل به لتحقيقِ المطلوب ، فافترقا .

وتبصّر عبارتَه : ﴿ وَبِقَدْرِ مَا وَهَبَ اللَّهُ لَكُمْ مُنْ جَلالَةِ الْعِلْمِ ﴾ تجدها عبارةٌ تحمل التذكير بأمرين جليلين :

الأول : أن ما معهم من العلمِ إنما هو تفضل وهبةٌ من الله تعالى ، وليس من اجتهادهم ، فما اجتهادهم إلا سببٌ ظاهريّ لما معهم من العلم وهذا يجعل كلَّ واحدٍ منهم يقُوم في مقامِ التواضعِ لله تعالى[1] .

---

(١) روى مسلم في كتاب (صِفة الجنة ونعيمها وأهلها) مِنْ صَحيحه بسنده عَـنْ عِيَاضِ بْنِ حِمَـارٍ أَخِي بَنِي مُجَاشِـعٍ قَالَ قَـامَ فِينَا رَسُـولُ اللَّـهِ ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذَاتَ يَوْمٍ خَطِيبًا ، فَقَالَ : . . . ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لاَ يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَـى أَحَـدٍ وَلاَ يَبْغِـى أَحَـدٌ عَلَـى أَحَدٍ ﴾....

فلا يرى نفسَه فيما معه من العلم الذي صار به كلٌّ صالحًا للقضاء كما شهد لهم بِه ، فإن رؤية النفسِ في العلم أو العمل مفسَدة له .

فهذه العبارة تَئِدُ عادية العُجب من أن تتسلَّل إلى قلوبهم حين يسمعــون ما شهــد لهم به من قبـلُ . وهذا مِن حكمـة الإمــامِ أبي حنيفة ولقَّانيتِه .

والآخر : تذكيرُهم بجلالِ العلمِ ومقامِه الرفيع الَّذي لا يصلُحُ أيّ عرضٍ مِن أعراضِ الدّنيا أن يكونَ عِوضًا له ، فهُو أجلُّ مِن أن يُباعَ ، أو يُستأجرَ . .

وصّاهم بأن لا يستأجـروا العلم بأيّ مال أو منصبٍ أو جــاهٍ أو ثناءٍ من النّاسِ ونحو ذلك فالعلم لا يصلُحُ إلا أن يُباعَ لله تعالى برضوانِه ومحبته . ذلك ثمنه . بهذا يبذلُ العالم علمَه . فهو حين ينشرُ ما وهبه الله تعالى من العلم في النَّاسِ إنّما يبيعُه لله تعالى برضوانِه وسترِه ومحبتِه . فالصّفقة بيْن الله تعالى الوهّابِ ، والعالم الموهوبِ له العلم .

وعجيبٌ إكرامُ الله تعالى للعالم :

يَهبُ له العلم ، ثُم يشتريه منه برضوانِه ومحبتـه إن بذلَـه للعبـادِ مخلصًـا لله تعـالى لا لغـيرِه . وهـذا يسـتوجبُ أن يكـون للعـالمِ

ولطالب العلم بابًا آخر من أبـواب اكتسابِ الـرزقِ الطيـبِ ، كيــما لا يتخذ العلم سببًا في تحصيلِ الدنيا ، وأخذها من أيدي الناس .

وقـد كـان أبـو حنيفـة خـزازًا . يصـنع الخـزّ ، ويبيعـه . وكـان مبسوطًا له رزقه ، وكان باسطًا يده بِه في الناسِ .

وليس من استئجارِ العلمِ نشر العالم العلم في النَّاس ، وبذل الحاكم للعالم من بيتِ المالِ ما يكفيه ، ويغنيه ، لا منْ بيتِه أو بيت أحد من الناس .

ذلك ليس من قبيل استئجارِ العلم ، وإنّما هو عوضٌ عن الجهد والوقت الذي يبذله العالم في تعليم الناس ، وليستعين بذلك على أن ينفق على علمِه ، وليتفرغ العالمُ لتحقيق العلم وخدمتِه ، فالمستفيدُ من العلمِ ليس هو الذي يَجزي العالم ، بل الذي يُجزيه بيْت المال ، وليس الحاكم من مالِه ، فهو أشبه بتجهيز المجاهد من مال الصدقاتِ وأشبه بما يعطى من الصدقات للقائمين عليْها ، وأشبه بما كان قد قبلَه سيّدنا أبو بكر من جُعلٍ من بيتِ المالِ نظيرَ تفرُّغِه للولاية والخلافة [1]

---

(١) روى البيهقي في كتاب (قسم الفيءِ) من سننه بسنده ١٣٣٩ عَنِ الْحَسَنِ : أَنَّ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خَطَبَ النَّاسَ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ : ==

==إِنَّ أَكْيَسَ الْكَيْسِ التَّقْوَى وَأَحْمَقَ الْحُمْقَ الْفُجُورُ أَلاَ وَإِنَّ الصِّدْقَ عِنْدِى الأَمَانَةُ وَالْكَذِبَ الْخِيَانَةُ أَلاَ وَإِنَّ الْقَوِىَّ عِنْدِى ضَعِيفٌ حَتَّى آخُذَ مِنْهُ الْحَقَّ وَالضَّعِيفَ عِنْدِى قَوِىٌّ حَتَّى آخُذَ لَهُ الْحَقَّ أَلاَ وَإِنِّى قَدْ وُلِّيتُ عَلَيْكُمْ وَلَسْتُ بِأَخْيَرِكُمْ .
قَالَ الْحَسَنُ : هُوَ وَاللَّهِ خَيْرُهُمْ غَيْرَ مُدَافَعٍ وَلَكِنَّ الْمُؤْمِنَ يَهْضِمُ نَفْسَهُ .
ثُمَّ قَالَ : لَوَدِدْتُ أَنَّـهُ كَفَانِى هَذَا الأَمْرَ أَحَدُكُمْ .
قَالَ الْحَسَنُ : صَدَقَ وَاللَّهِ .
وَإِنْ أَنْتُمْ أَرَدْتُمُونِى عَلَى مَا كَانَ اللَّهُ يُقِيمُ نَبِيَّهُ مِنَ الْوَحْىِ مَا ذَلِكَ عِنْدِى إِنَّمَا أَنَـا بَشَرٌ فَرَاعُونِى
فَلَمَّا أَصْبَحَ غَدَا إِلَى السُّوقِ فَقَالَ لَهُ عُمَرُ رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُ : أَيْنَ تُرِيدُ؟ قَالَ السُّوقَ قَالَ : قَدْ جَاءَكَ مَا يَشْغَلُكَ عَنِ السُّوقِ .
قَالَ : سُبْحَانَ اللَّهِ يَشْغَلُنِى عَنْ عِيَالِى قَالَ : تَفْرِضُ بِالْمَعْرُوفِ قَالَ : وَيْحَ عُمَرَ إِنِّى أَخَافُ أَنْ لاَ يَسَعَنِى أَنْ آكُلَ مِنْ هَذَا الْمَالِ شَيْئًا قَالَ فَأَنْفَقَ فِى سَنَتَيْنِ وَبَعْضِ أُخْرَى ثَمَانِيَةَ آلاَفِ دِرْهَمٍ فَلَمَّا حَضَرَهُ الْمَوْتُ قَالَ قَدْ كُنْتُ قُلْتُ لِعُمَرَ إِنِّى أَخَافُ أَنْ لاَ يَسَعَنِى أَنْ آكُلَ مِنْ هَذَا الْمَالِ شَيْئًا فَغَلَبَنِى فَإِذَا أَنَـا مُتُّ فَخُذُوا مِنْ مَالِى ثَمَانِيَةَ آلاَفِ دِرْهَمٍ وَرُدُّوهَا فِى بَيْتِ الْمَالِ .
قَالَ فَلَمَّا أُتِىَ بِهَا عُمَرُ رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : رَحِمَ اللَّهُ أَبَا بَكْرٍ لَقَدْ أَتْعَبَ مَنْ بَعْدَهُ تَعَبًا شَدِيدًا ..» هل لكل من ابتلي بولاية عامة أن يقيس موقفه من مال بيت المسلمين وعبثه فيه بموقف الصديق ليعلم أين موقعه من الرجال .

ولهذا كان أبو حنيفة لا يأخذ عطايا السُّلطان ، وكذلك كان العلماءُ ، ولمَّا علم الإمام أحمدُ بنُ حنبلٍ رضي الله عنه أنّ ولدَه صالحًا قد قَبل عطية السّلطان سدّ الطاقة التي كانت في الحائط الذي بينه وبين بيت ولده صالح .

كذلك كان العلماء ، فهل بقي منهم شيْءٌ ؟!!!

هكذا يُقيم أبو حنيفة تلاميذه مقامًا لا قبلَ لهم فِي أنْ يتهاونوا في الوفاء بكمال حقٍّ ما سألهم بالله تعالى .

ومن سُئل بالله تعالى وجبَ القيام بما سُئِل ما أطاق ، وإلاّ ، فلا يُكلّفُ الله الرَّحمنُ الرَّحيمُ الرَّؤوفُ نفسًا إلا وسعَها .

روى أبو داود في كتاب (الزكاة) من سُننهِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :

« مَنِ اسْتَعَاذَ بِاللَّهِ فَأَعِيذُوهُ وَمَنْ سَأَلَ بِاللَّهِ فَأَعْطُوهُ وَمَنْ دَعَاكُمْ فَأَجِيبُوهُ وَمَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُونَهُ فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَرَوْا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ »[1].

ومسؤول أبي حنيفة أصحابَه جدّ ثقيلٍ في زمنٍ يُغرِي السلطان العلماء بإغراقِهم في متاعِ الدنيا ، حتّى إذا ما أدمنوا هذا النعيم ،

---

(١) ورواه البخاري في الأدب المفرد . حديث رقم (٢١٦) .

ولم تطق نساؤهم وأبناؤهم ما دونه بدأ السلطان في استثمارِ ما أنفق . فتكون المهلكة . وفي زماننا يستشرف المشتغلون بالعلم إلى عطايا السلطان فترى أحدهم بمنحة (محنة) السلطان أفرح منه بفهم عويصة في العلم .

والشأن في السلطانِ أنّه لا يطلبُ من العالم فتوى على غيرِ ما يُرضِي الله تعالى ، هو أمكرُ من هذا .

إنّما يحملُ العالمَ على أن يُفتي بما يُرضيهِ دون طلبٍ مباشرٍ منه ، حين يقيمه في نعِيم إذا ما أُخرج من منصبِه فقدَه ، وحينئذ لا يكون ذلك العالمُ إلا مستمسكًا بمنصبِه ، ولنْ يفعل إلاَّ ما يظنّ أنّه للسلطانِ مُرضِيًا .

وانظر في مَن حولَك مِن المشتغلين بالعلم وأصحاب المناصبِ منهم . كيف كانوا يعيشون قبل أن ينصّبوا ، وكيف هم الآن .

أرأيت بملك أحدهم أن يُفارق ما هو فيه غضبةً للحق؟

أيُّ رجل هذا ؟ أين هو؟ دلّني عليْه لأسعى إلى أنْ أقبّلُ رأسَه .

سبلُ استئجارِ السُّلطانِ العلماءَ جدّ كثيرةٍ ومتنوعة ، والعلماء الذينَ يستأجرُ السُّلطان علمَهم بشيْءٍ من تلك الطرق يعلمون ذلك ، ولكنَّهم يتغافلون .

إنّ إِغراقَ السُّلطانِ بعضَ العلماءِ دون بعضٍ في متاع الدّنيا إنّما هو صُورة من صور الرِّشوة المقنعةِ لهم ، وصورةٌ من صُور استئجار فتاواهم . وخِطاباتهم التي يستحيي ابن سلولٍ أن يسمَعها ، فكيف ينغقُ بِها . وقد صبت في أذنيك منها في الأيامِ الغابرة منها كثيرٌ ، وما تزال شُيوخ الفتنة والفحشاء ينعبون وينغِقون .

لو أنّ السّلطان بَسط للعلماءِ جميعًا ما كان ذلك استئجارًا ، بل هو من إكرام العلم وأهلِه . والعالمُ الحقّ ليس بحاجةٍ إلى بسطة في متاع الدنيا بقدر ما هو بحاجةٍ إلى أن يُصغى إلى الهُدى ، وأن يُبسط في الناسِ ، ويُستجابَ لما يُرضي الله تعالى . ذلك هو الإكرامُ الحقُّ للعلمِ والعُلماءِ .

المبحثُ الثاني

المنهج عند إرغام السلطان للعالمِ على تولِي القضاء

من بعدِ ما أَوصاهم بأن لا يَستأجِروا ما أنعمَ الله عليهم به من جليلِ العلم ، بكل متاعِ الدنيا وحثَّهم علَى أنْ يَبذُلوه حِسبةً لِمرضاةِ الله تعالى لا لمرضاةِ عبدٍ من عبادِه ، لا يلومون في ذلك لومةَ لائم ، وأن يجهروا بنصرة الحقّ أيًّا كان صَاحبُه ـ من بعدِ ذلك عرّج على بيان ما لا بُدَّ أن يكونَ لبعضِهم ، لِمَا لَه رضي الله عنه مِن عظيم الخبرة بالحياةِ ، وبأفاعيل السلاطين ، ولِما قام هُو فِي شَيْءٍ منه قيامًا ثبَّته الله تعالى فِيه على الحقّ ، ولم ينل منه إهانة السلطان له عليْه ، فقام لله تعالى غيرَ خاضعٍ لغيرِ الحقِّ ، ولامداهنٍ لِسطوةِ الطّغيان [1] .

---

(١) أشـرتُ في ترجمةِ أبي حنيفةِ إلى محنةِ أبي حنيفة في القضـاء ، وهي لاتقل عن محنةِ الإمام أحمد رضي الله عنه في فتنة القولِ بخلقِ القرآن. وأبو حنيفة أبى أن يكـون قاضِيا لحاكم اغتصب الحكم ، ولذا كـان==

عرّج على بيانِ ما يَجبُ أن يكـونوا عليْه إذا ما نزلَ عليهـم بلاءٌ من السُّلطان فحملَ أحـدهم على أن يقوم مقام القضـاء ، ماذا يفعل :

« وَإِنْ بُلِيَ أَحَدٌ مِنْكُمْ بِالْقَضَاءِ ، فَعَلِمَ مِنْ نَفْسِهِ خَرِبَةً سَتَرَهَا اللَّهُ عَنِ الْعِبَادِ لَمْ يَجُزْ قَضَاؤُهُ ، وَلَمْ يَطِبْ لَهُ رِزْقُهُ » .

في عبارةِ أبي حنيفة من الإيجاز والاقتصاد في العبارة عن أمر جليلٍ ما يفهم أنّ تولَى القضاء إنّما هو الابتلاء ولا سيّما في زمنٍ لا يكونُ القاضِي حرًّا لا يخضعُ إلا لما يَعلمه من الحق ، فيقِيم العدلَ على رأس كلٍّ مهما علا قدره ، وعنف قهرُه ، واستشرى جبروتُه .

قوله : « فعلِمَ مِن نفسِهِ خربةً سترها الله عن العبادِ ، لَمْ يَجُزْ قَضَاؤُه ، ولَمْ يَطِبْ لَهُ رِزْقُهُ » هادٍ إلى أنّ على القاضي أن يراجع نفسَه ، وأحكامَه ، وأحواله ، ويتفقدها ، فهي إذا ما انتهت في حق

==أبو حنيفة مناصرًا لحفيد سيدنا الحسن : أبي الحسن إِبْرَاهِيمَ ابْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنهم حين خرج على أبي جعفر المنصور وكان هذا هو السبب الرئيس لترك أبي حنيفة تولّي القضاء في زمن الظلم ولحبسِ أبي جعفر له حتى قضى نحبه مسجونًا.

تاريخ بغداد ، للخطيب البغدادي . ٣٢٩/١٣ .

غيرِه ، ومضى أمرها ، فإن عليْه أن يراجع أحكامه وقضاءه ، وأحوالَه ، يتفقدها يحاسبُ نفسَه ، يزنها كلّ يومٍ ، فإذا ما بدَت له خَربَة أي فعلةٌ في القضاءِ وغيرِه غير عامرةٍ بالعدل والإحسانِ سَتَرَهَا اللَّهُ عَنِ الْعِبَادِ ، فإن التـوبة منها أن يعتزلَ القضـاءَ ، وأن لا يأخذَ رزقه منه ، لأنـَّه بات غيرَ مُحصَنٍ ، فقد ثُلمَتْ حالُه ونزاهتُه ، فعليْه أن يستثمرَ سترَ الله تعالى عليْه ، ولا يعرّض نفسَه لمثلها ، فإنّه إن عرضَها مرةً أخرَى لا يأمنُ أن يسترَها الله تعالى عليْه ، ذلك أنها ليست بخربة تتعلقُ بحقِّ الله تعالى ، بل هِي متعلقة بالعدلِ ، بحقوقِ العبادِ ، وهذا ديوانٌ لا يُغفرُ ولا يسترُ إلا إذا جادَ صَاحبُ الحقِّ بالغفرانِ والسَّتر ، وما يكون لقاضٍ أن يقيم نفسَه في مقامٍ يكون في عَوزٍ لغفران أحدٍ له من العبادِ .

وهنا يَعمدُ أبو حنيفة إلى بيان المنهج الأمثل والطريقِ الأقوم الأسلم إذا ما حمل المرءُ على الدُّخولِ في القضاءِ .

جعل المنجاة من ثلاثة ، لا يتركها أبدًا :

- لا يَحْتَجِبَنَّ عَنِ النَّاسِ
- لِيُصَلِّ الْخَمْسَ فِي مَسْجِدِهِ
- يُنَادِي عِنْدَ كُلِّ صَلاةٍ : مَنْ لَهُ حَاجَةٌ؟ فَإِذَا صَلَّى الْعِشَاءَ نَادَى ثَلاثَةَ أَصْوَاتٍ : مَنْ لَهُ حَاجَةٌ؟ ثُمَّ دَخَلَ إِلَى مَنْزِلِهِ»

احتجابُ القاضي عن الناس يُعين الظلمة على استفحال ظلمهم ، واستزراعِه في مجالات الحياة ، لأنّه يجد ما يُعينه على ألا يأخذ العدل منه مأخذا ، فالذي يقيم العدلَ عن الناسِ محتجبٌ [1] .

وهذا في زماننا يعادله تيسير إجراءات التقاضِي ، ورفع تكالِيفه عنهم ، بحيثُ يتكلّفُ بيت المالِ أولاً كلّ مصاريفِ التقاضِي ، ومن يثبت الحقّ عليْه يحمّل هذه التكاليف .

وإذا رأيت حاكمًا يُقيم رسُومًا لا يُطيقها الضعفاءُ والفقراء لإقامة الدّعوَى ، فاعلمنَّ أنّه إنّما يفعلُ ذلك لِيعيقَ المَظلومين عَن مُقاضاة الظَّالمين .

كيف يُكلَّفُ مظلومٌ أن ينفقَ على حقه في إنصافِه ورفعِ الظّلمِ عنه . إنَّ هذا لَهُوَ عينُ الظُّلم . الظَّالمُ هو الأحقُّ بأن يُحمّل كلَّ

---

(١) فريضة على القاضِي أن لا يزاحم العامة في الأسواقِ بائعًا ومشتريًا ، وأن لا يُخالطهم في منتجعاتِ اللهو ، والفسوق وأن لا يحضر مجالس العزاءَ ، والأفراح التي لا تترك فيها كبيرة من الفجور إلا واتخذت تعبّدا ، وأن لا يجلسَ في الطرقات والمقاهِي ، وأن لا يحضر معارض الفن ، ومجالسِ الفنانين ، وأن لا يصادق رجال الأموالِ وأن لا يُخادن العلمانيين . . . فكل ذلك إنّما يخرق مهابة القضاء أمام الطغاة والفسَقَةِ والفجرة .

تكاليفِ التَّقاضِي ، فوق ما يجبُ عليْه مِـن حـقٍّ لِلمظلومِ . فـإذا ما عَلمَ المظلوم أنّ طلبَه الحق لا يكلفه إلا طلبَه بادرَ كلُّ مظلومٍ إلى مُقاضاةِ ظالِمِه . وهنا يكفُّ الظالمون عن الناسِ ظُلمَهم .

لهذا كان مِن حِكمةِ أبي حنيفة أن نصح مـن يُبتلـى بـأن يكـونَ قاضِيًا بأن لا يتخّذ حاجبًا يُحاجز النـاسَ عـن لُقيـاه ، فالشَّـأنُ في الحُجَّـاب ، والقـائِمين علـى أبـوابِ ذوى السّـلطان مـن الحكـام والقضاة ونحوهم أنـَّهم هم العقبة الكؤودُ أمام النَّاسِ لبلـوغهم إلى الحكام والقضاة ، وكلِّ ذي إمرةٍ . وهـم أيضًـا سببٌ مـن أسبابِ تفشي الرشوة ، والإتاوة .

وفي احتجابِ القضاة عن الناس سبيلٌ إلى أن يتسرّب الكِبرُ إلى أنفسهم ، وشعورهم بأنّ لهم فضلٌ على النّاسِ ، وأنهم ليسوا كمثلهم أحدٌ منهم . وحينئذٍ لن يكون العدلُ بَيْن مَن يَرون أنـَّهم مِن دُونِهم رسَالة يقومون لها ، وبها ، فإذا لسان حال كل قاضٍ يَصيح في الناس نحن السادة وأنتم العبيد .

لو قالهـا غيرهـم ، لقلنـا لا حـرج ، ولخفّـتْ وطأتُهـا ، أمّـا أن يقُولَها قاضٍ ، فتلك الَّتي لا تبقِي في صدر عاقل أملاً في أن يكون للعدل وجود ما بقي أمثالُ قائلها فينا قاضِيا .

قالهـا أبو حنيفـة : لا يَحْتَجِبَنَّ عَنِ النَّـاسِ . فكـانت دستـورًا لا يحلّ لقاضٍ أن يخرِقه .

* * *

ويأتي من بعدِها ما هو أعلى : «لْيُصَلِّ الْخَمْسَ فِي مَسْجِدِهِ»

صَلاة القاضي الفريضة في المَسجد تجعلُه مطلعًا عَلى أحوالِ النَّاسِ ، فمعظم مَن يردُ تلك المساجدَ في غير صلاة الجمعةِ إنّما هم الضُّعفاء وذوو العوز ، فإذا رأت العامَّةُ أنَّ القاضِي معلقٌ قلبُه بالمسجدِ اطمأنّـت نفوسُهم أنّ لهم مِن يدفعُ عنهم الظُّلم ، وأنّ العدلَ آخذٌ برقابِ كلّ من تسوّل له نفسُه أن يعتدِي على أحدٍ .

وقوله : «في مسجدِه» دون «في المسـجد» إلـزامٌ للقاضِـي أن يكون معلومًا للنـاسِ ، فيـذهبون إليْـه ، فتعـيين المسـجد فيـه مـن التَّيسير على أصحابِ الحاجاتِ ما فيه ، فمَـن كـان ذا حاجـة علـم أيـن يـذهبُ ومتـى يـذهب ، وذلـك مِـن رحمـة القاضِـي بـذوي الحاجات .

وفي صَلاةِ القاضِـي الخمـسَ في مسـجِدِه مُحـاجزةٌ لَـهُ عـن أنْ يستشعرَ في نفسِه تميّزًا عمَّن هو فيهم قائمًا بيْن يـدي الله سُـبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، سيكون من عن يمينه ويساره ، ومـن خلفِـه ، وربّمـا مِـن أمامِه أشعث أغبر ذو طمرين . ولعلّه يحظَى بـدعوةٍ بظهـرِ الغيـب

ممّن لو أقسمَ على الله تعـالى لأبـرّه . وهـو مفتقـرٌ إلى مثـل هـذه الدّعوةِ ففيها له من فيوضِ التوفيقِ إلى إقامةِ العدلِ ما فيها . وتلك رسَالة كلّ قاضٍ ابتلي بهذا الأمر .

وفي حرصِ القاضِي على إقامةِ الفرائضِ الخمسِ في بيتِ الله تعالى والصَّلوات النَّوافل في بيْتِه إعلانٌ منه للعامَّة أنّـه يُقيم العدلَ بيْن بيْتِ اللهِ تعالى وبيتِه :

حقُّ بيتِ اللهِ تعالى إقامةُ الفرائضِ فيه جماعةً ، وحقُّ بيتِ المسلمِ إقامةُ النّوافلِ في بيْته ، فلا يظلم أحدَهما بأن يُصلّي في بيْته الفرائضَ ، أو يُصلّى في المسجدِ كلَّ النَّوافلِ ، ولا يجعلُ لبيتِه من صَلاتِه نصيبًا . فإنْ فعلَ فقد ظلم .

ومَن يظلمَ بيتَ الله تعـالى ، أو بيْتـه ، فهـو علـى ظُلـمِ غيرهمـا أقوَى ، وحينئذٍ يملأ قلب العامةٍ تخـوفٌ بـالغ ، وهـذا إذا مـا حـل بقومٍ فلن تستقيم حركـةُ الحياة ، حين يستشعرُ العــامَّة أنَّ القضـاء لا ينصف الضعفاء ، فإنّهم سيكونون حربًا لا تبقِي صَالحًا ، وتلك هي الحالِقة الحارقة .

فمن هدي النّبوة أن يجعلَ للمسجد حظه مـن الصـلاة ، ولبيـتِ المسلم حظّه منها .

روى مسلم في كتاب (صَلاةِ المسافرين) مِن صَحيحِهِ بسندِه عَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِذَا قَضَى أَحَدُكُمُ الصَّلاَةَ فِي مَسْجِدِهِ فَلْيَجْعَلْ لِبَيْتِهِ نَصِيبًا مِنْ صَلاَتِهِ فَإِنَّ اللَّهَ جَاعِلٌ فِي بَيْتِهِ مِنْ صَلاَتِهِ خَيْرًا » .

* * *

ويبني أبو حنيفة على هذه الجليلة جلية أخرى ، يجعلها قرينة حفاظِ القاضِي على إقامة الفرائضِ الخمسِ في مسجِده ، إنّها إعلامُه بأنّه باحثٌ عن ذوي الحاجاتِ يحملها عنهم إلى من يقُوم بحقّها .

يقُول أبو حنيفة : « يُنَادِي عِنْدَ كُلِّ صَلاةٍ : مَنْ لَهُ حَاجَةٌ؟ فَإِذَا صَلَّى الْعِشَاءَ نَادَى ثَلاثَةَ أَصْوَاتٍ : مَنْ لَهُ حَاجَةٌ؟ ثُمَّ دَخَلَ إِلَى مَنْزِلِهِ »

هذه من أبي حنيفة حملٌ للقاضي على أن لا يكونَ حضورُه المسجدَ لإقامةِ الفرائضِ الخمس فِي خفاء أو في حراسة تحاجزُه عن النَّاسِ ، أو يُسارع بالخُروج بعد الفراغِ منها ، بل عليْه أن يُعلن عن مَحضرِه ومكانِه في المسجدِ . وأن ينادِي عقبَ كلّ صَلاة « مَن لَه حاجة » هكذا على العموم . أيّ حاجة . لِيكونَ الوَسيطَ القويَّ الأمينَ بيْن الضُّعفاءِ الّذينَ لا يَملِكون سبيلاً إلى ذِي

سُلطــان ، فيكونَ هــو الحامِلَهـا منهم إليه ، وهــو العَــدلُ الذي لا يتوقفُ أحدٌ فِي صِدقِ ما حَمل . وهو حين يَحملُ الحاجةَ لَن يحمِلَها وهو لا يتوثَّقُ مِن صِدقِ صَاحبِها فِي أنَّـه في حاجتِه ، فشأنُ القاضِي التَّوثُّق مِن كلِّ شيْءٍ ، فالتثبتُ والتَّبيُّنُ عمُودُ شخصيّةِ القاضِي ، وهذا يستَوجِبُ عليْه أن يكونَ مليكَ الصّبرِ الجميل ، والحِلمِ الجليلِ واتساعَ الصّدر ، والرّأفة بالضعفاء ، والذين لا يُحسنون عرضَ حاجاتهم .

يجعل أبو حنيفة هذا واجبًا على القاضِي في كلّ صلاة ، ويتأكّــدُ وجوبُها في صــلاةِ العشاء ، يقُــولُ عقبها ثلاثَ مــراتٍ ما يقوله في الصّلواتِ الأُخر مرّة .

وتكرارُه في عقبِ صَلاة العِشاءِ إبلاغٌ في التّحقق لعل هنالك من لم يَسمعْ في الصَّلواتِ الأُخر ، أو لم يكن حاضرًا ، فليكن القاضي الحريصَ أن لا ينقضِي اليومُ ، وفي النَّاسِ من لم يسمَعها .

والصلـواتُ الأخر يُمكن أن يكــون بعضُ النّاسِ في مشغلـةٍ أو بعيدًا عن مسجد حيّه ، فإذا جاءت صَلاةُ العِشاءُ كان الناسُ قد فرغُوا من أعمالِهم ، وعادوا إلى بيوتِهم ، والأصلُ أن يكونوا هم أكثر تواجدًا في صَلاة العِشاء ، أمّا في صلاة الفجرِ فَربّما أخذت بعضهم سُلطةُ النّوم ، فلا يلحقُ القيامَ بِها في المسجد .

كلُّ هذا إبلاغٌ في أن يكون القاضيَ الحريصَ على أن لا يبقَى في الناسِ ذو حاجةٍ لا يَجد من يحملها عَنه .

يقُول أبو حنيفة «ثُمَّ دَخَلَ إِلَى مَنْزِلِهِ» إذا فرغ من صلاة العشاء والمناداة ثلاثًا : من له حاجة ، وفرغ من الاستماع إلى ذوي الحاجات وتبيّن ، وتثبت ، كان عليْه أن يعمَد إلى منزِله . لا يشارك الناسَ بعد في سَهرِهم ولهوهِم ولغوهِم قولاً وفعلاً ، حفاظًا على هيبتِه ووقتِه وتهيئة لأن يُحسن النظر في حاجاتِ الناسِ وقضاياهم . فتلك عبادته التي يتخذها سبيلاً إلى مرضاةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى .

كذلك يرسُم أبو حنيفة الإمام لتلاميذه معالم السّبيل القويم ، كي ما لا يضل واحدٌ منهم . وتلك رسالة العالم والمعلمِ ، لا يدع تلاميذه بغير أن يفصّل ويبيّن لهم خارطة الطَّريق إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى .

وهذا الذي قاله أبو حنيفة ليس بلازم أن يؤخذ بحرفيته في الجانبِ الإجرائيّ للمنهج ، وإنما على القاضي أن يلتزم بروح المنهج وحكمتِه والغاية التي هو لها .

ليس بلازم أن ينادي القاضِي عقب كلّ صلاة ، بل يُمكنُه أن يتخذ إجراءً آخرَ مناسبًا للعصر ، المُهمّ أن يكون بابُ تواصل

الضعفاء وذوي الحاجات معه مفتوحًا ، حيثُ أرادوا أن يُوصِّلوا إليه حاجاتهم وشَكاتِهم . وقد تعدَّدت وسائل التَّواصل الآمنة السّريعة بين النّاس ، فللقاضي أن يتخذَ منها ما يُحقق الغاية المرجُوَّة .

* * *

ذلك ما على القاضي أن يقُوم به إذا ما كان حالُه في سِعةٌ ، « فَإِنْ مَرِضَ مَرَضًا لا يَسْتَطِيعُ الْجُلُوسَ مَعَهُ أَسْقَطَ مِنْ رِزْقِهِ بِقَدْرِ مَرَضِهِ »

هذا الذي يقرره أبو حنيفة إنّما هو إبلاغٌ في حرصِه أن يكونَ رزق القاضِي طاهرًا من كلِّ شائبةٍ ، فلا يأخذ شيئًا على عمل لم يقم بِه على الرَّغم منه .

وهذا من أبي حنيفة إبلاغٌ في التورع ، ذلك أنَّ أجر العاملِ إذا مرضَ وعلم بمرضِه صاحبُ العمل ورضي ، فلا حرج أن يأخذه ، تأسيسًا على ما رواه البخاري في كتاب (الجهاد) من صَحيحهِ بسنده . . . حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ أَبُو إِسْمَاعِيلَ السَّكْسَكِيُّ قَالَ سَمِعْتُ أَبَا بُرْدَةَ وَاصْطَحَبَ هُوَ وَيَزِيدُ بْنُ أَبِى كَبْشَةَ فِى سَفَرٍ ، فَكَانَ يَزِيدُ يَصُومُ فِى السَّفَرِ فَقَالَ لَهُ أَبُو بُرْدَةَ سَمِعْتُ أَبَا مُوسَى مِرَارًا يَقُولُ

قَـالَ رَسُــولُ اللَّهِ ﷺ « إِذَا مَــرِضَ الْعَبْــدُ أَوْ سَافَرَ ، كُتِبَ لَهُ مِثْلُ مَا كَانَ يَعْمَلُ مُقِيمًا صَحِيحًا » .

وهذا ما تأخذُ به بعضُ الحكومات مع العاملين بِها : لا يُقطع عنه جعلُه المُرتّبُ له إذا ما مَرض .

ولكنَّ أبا حنيفة أراد أن يجعلَ القاضِيَ فوق كلَّ هذا . أراده نقيًّا زكيًّا من كلِّ شوبٍ . فهو تحاجزٌ عن حمى الحرام .

وَقَالَ أَبُـو الدَّرْدَاءِ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ : التَّقْوَى تَمَامُ التَّقْوَى أَنْ يَتَّقِيَ اللَّهَ الْعَبْـدُ حَتَّى يَتَّقِيَهُ مِنْ مِثْقَـالِ ذَرَّةٍ ، وَحَتَّى يَتْـرُكَ بَعْـضَ مَا يَرَى أَنَّـهُ حَلالٌ خَشْيَةَ أَنْ يَكُونَ حَرَامًا حِجَابًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْحَرَامِ .

وروى البخاري في كتاب (الإيمان) من صَحيحهِ عن ابن عمر موقوفًا » لاَ يَبْلُغُ الْعَبْدُ حَقِيقَةَ التَّقْوَى حَتَّى يَدَعَ مَا حَاكَ فِى الصَّدْرِ [1]

---

(١) روى الترمـذي في كتـاب (صِفةِ القيـامة) من جامِعِـه بِسندِه : حَـدَّثَنَا أَبُو بَكْـرِ بْنُ أَبِى النَّضْـرِ حَـدَّثَنَا أَبُو النَّضْرِ حَــدَّثَنَا أَبُو عَقِيلٍ الثَّقَفِىُّ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَقِيلٍ حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ يَزِيدَ حَدَّثَنِى رَبِيعَةُ بْنُ يَزِيدَ وَعَطِيَّةُ بْنُ قَيْسٍ عَنْ عَطِيَّةَ السَّعْدِىِّ وكَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِىِّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صلى الله عليه وسلم ـ « لاَ يَبْلُغُ الْعَبْدُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُتَّقِينَ حَتَّى يَدَعَ مَا لاَ بَأْسَ بِهِ حَذَرًا لِمَا بِهِ الْبَأْسُ » . ==

==قَالَ أَبُو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ لاَ نَعْرِفُهُ إِلاَّ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ.
ورواه ابن ماجه في كتاب (الزهد) من سننه . حديث رقم (٤٣٥٥) .
وهذا حديث ضعيف من جهة «عَبْدُ اللَّهِ بْنُ يَزِيدَ الدمشقي»
قال الألباني في «غاية المرام» : «ضعيف أخرجه الترمذي وابن ماجه والحاكم وعبد الرحمن بن حميد والبيهقي والقضاعي وابن عساكر .
وقال : عبد الله بن يزيد الدمشقي لم يوثقه أحد ، بل قال الجوزجاني : روى عنه ابن عقيل أحاديث منكرة . . .
غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام ، نشر : المكتب الإسلامي ـ بيروت . الطبعة الأولى عام : ١٤٠٠ هـ . حديث رقم (١٧٨) ص : ١٣٠ .
ولهذا تركت الاستئناس به ، وآثرتُ ما روي عن أبي الدرداء موقوفًا ، وما روي عن ابن عمر موقوفًا فالاستئناسُ بِه أسلم .
ونحن في غُنية عن الأخذ بالحديث الضعيف سندًا ، وإن كان صحيح المعنى في مثل هذا فإن لنا في القرآن والسنة الصحيحة ما يُغنى عنه ، نحن في غنية عنه بقول الله تعالى :
﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾
(آل عمران:١٠٢)
وما رواه الشيخان البخاري في كتاب (الإيمان) ومسلم من كتاب (المساقاة) من صحيحهما ، والنص للبخاري : عَنْ عَامِرٍ قَالَ سَمِعْتُ النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ يَقُولُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ـ صلى الله عليه وسلم ـ يَقُولُ :
«الْحَلاَلُ بَيِّنٌ وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ ، وَبَيْنَهُمَا مُشَبَّهَاتٌ لاَ يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ ، فَمَنِ اتَّقَى الْمُشَبَّهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ ، وَمَنْ وَقَعَ فِى الشُّبُهَاتِ كَرَاعٍ يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى ، يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَهُ . أَلاَ وَإِنَّ ==

يجعل بيْنه وبين ما فيه شبهة سبعين بابًا من الحلال مخافة مقاربة الحرام ، وتلك هي حقيقة التقوى .

وإذا أمر الله تعالى العبادَ بتقواه حق تقاته :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران:١٠٢) فالقاضِي هو أحقُّ النّاس بأن يلزمَ ذلك في جميع أمرِه قولاً وفعلاً وحالا ، ظاهرًا وباطنًا .

فأحقّ النّاس بالورعِ ، وأحوجهم إليْه القاضِي ، فإنّ الورع هو الباعث للقاضي على اتقاء الشبهةِ واستشعار الحرجِ فيما لا يليقُ به قولاً وفعلاً وحالاً [(١)].

== لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى ، أَلاَ إِنَّ حِمَى اللَّهِ فِى أَرْضِهِ مَحَارِمُهُ ، أَلاَ وَإِنَّ فِى الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ . أَلاَ وَهِىَ الْقَلْبُ » .

وما رواه الترمذي في صفة القيامة من جامعه بسنده عَنْ أَبِى الْحَوْرَاءِ السَّعْدِىِّ قَالَ قُلْتُ لِلْحَسَنِ بْنِ عَلِىٍّ مَا حَفِظْتَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ـ صلى الله عليه وسلم ـ قَالَ حَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ـ صلى الله عليه وسلم : « دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لاَ يَرِيبُكَ فَإِنَّ الصِّدْقَ طُمَأْنِينَةٌ وَإِنَّ الْكَذِبَ رِيبَةٌ » .

قال الألباني في غاية المرام من أحاديث الحلال الحرام : صحيح أخرجه أحمد والترمذي والنسائي وابن حبان والحاكم (حديث رقم ١٧٩) . ص : ١٣٠

(١) روى ابن ماجه في كتاب (الزهد) من سُننه بسندِه عَنْ مَكْحُول عَنْ وَاثِلَةَ بْنِ الأَسْقَعِ عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم : ==

قَالَ يُونُسُ بْنُ عُبَيْدٍ : « الْوَرَعُ الْخُرُوجُ مِنْ كُلِّ شُبْهَةٍ ، وَمُحَاسَبَةُ النَّفْسِ فِي كُلِّ طَرْفَةِ عَيْنٍ . »

وإذا ما بلغ القاضِي حدًّا من الورع ، لا يأخذ جُعله من بيْتِ المالِ على أيامٍ مرضَ فيها ، فذلك ممَّا يُقيمُ في صُدورِ العبادِ ثقةً بعدلِه ، وإذا وثق النَّاسِ في القضَاءِ ، فإنّهم لنْ يَخافوا بعدُ ظُلمَ ظالمٍ ، وجور طاغيةٍ . وبذلك تعمُر الحياةُ ، وتثمِرُ خيرًا .

* * *

هذا الذي أبنت لك عنه من مقال الإمام أبي حنيفة عليك مسؤولية أخلاقية إزاءه . العلم إنما هو لاتخاذ موقف . فمن علم حقًّا ولم يتخذ لنصره موقفًا أو علم خبرًا ولم يتخذ لنشره موقفًا فيخشى أن يكون له في ثلة المغضوب عليهم مكان : من علم حقًّا فقام له وبه فهو من المنعم عليه . ومن علم حقًّا فلم يقم له وبه

=« يَا أَبَا هُرَيْرَةَ كُنْ وَرِعًا تَكُنْ أَعْبَدَ النَّاسِ وَكُنْ قَنِعًا تَكُنْ أَشْكَرَ النَّاسِ وَأَحِبَّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ تَكُنْ مُؤْمِنًا وَأَحْسِنْ جِوَارَ مَنْ جَاوَرَكَ تَكُنْ مُسْلِمًا وَأَقِلَّ الضَّحِكَ فَإِنَّ كَثْرَةَ الضَّحِكِ تُمِيتُ الْقَلْبَ» .. صححه الألباني في صحيح وضعيف سنن ابن ماجه ، وفي صحيح الجامع الصغير وزياداته . في باب (حرف الكاف) حديث رقم (٤٥٨٠) وحسنه في حرف (الباء) حديث رقم (٧٨٣٣) وقال صحيح لغيره في صَحيح الترغيب والترهيب : حديث رقم (١٧٤١) .

فهو من المغضوب عليه ، مما يجعل علمه به علمًا غير نافع وذلك ما استعاذ منه سيد ولد آدم صلى الله عليه وسلم ، ولولا أنه عظيم الخطر ما استعاذ منه بالله تعالى ، فالعظيم لا يستعاذ به إلا مما كان خطره بالغًا مستطيرًا .

* * *

المبحث الثالث

مبطلات ولاية السلطان وحكم القاضي

وتأتي فاصِلة الوصيّةَ جامعةً مُحكمةَ الأمر أيّما إحكام .

أوجز فيها أبو حنيفة عمود شَخصية الإمام والقاضي . أبان أنّ عمود شخصيته مزيجٌ من الأمانةِ والعدل . فإذا ما ذهب أحدهما ذهبت صِفته . وبطل عملُه . يقُول :

« وَأَيَّمَا إِمَامٍ غَلَّ فَيْئًا ، أَوْ جَارَ فِي حُكْمٍ ، بَطُلَتْ إِمَامَتُهُ ، وَلَمْ يَجُزْ حُكْمُهُ »

هذا أمرٌ عامٌّ لا يخُصّ القاضِي بل هُو يدخلُ فيه كلّ من تولّى أمرًا عامًّا ، وكانَ فيه الإمامَ ، وأعلاه الإمامُ العامّ : رئيسُ الدّولةِ والملكِ والسُّلطان وسائر صُنوفِ الولاية العامة .

والغلولُ هو الخيانة [1] والجَور هو الظلم بيْن الناس ، فغلولِ الإمامِ منْ بيْت المالِ يبطل بيْعته وإمامته ، وتنحلَّ العُقدة التي

(١) في لسانِ العرب/ « وغَلَّ يَغُلُّ غُلولا وأَغَلَّ : خانَ .
وقال الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (آل عمران: ١٦١)

عقـــدتْ له ، فلا يكون له على أحـــد مـــن قومِـــه يـدٌ ، فكيـف إذا ما اجتمع إلى الغلول ظلمه بين قومه على علم وتعمّدٍ [1]

فإذا حكم قاضٍ وهو غالٌّ أو جائرٌ عَن عمدٍ ، فلا يُمضي في حكمِه ، ويجبُ عزلُه .

الإمـامُ والقاضـي لا بـدَّ أن يكـون أمينًـا عـادلا . هـذان عمـادُ شخصيتِه ، فإذا ما تصدّع جانب من جـانبي هـذا العمـود : الأمانـة والعدل ، فقد سقط حقه ، ولم تجز إمامته وحكمه .

وعبارة أبي حنيفة بالغة الإحكام .

---

(١) وكل من لا يحكمُ بكتابِ الله تعالى وبسنة رسُولِه صَلّى اللهُ علَيْهِ وعَلى آلِه وَصَحبِه وسلّم هو ظـالمٌ إن كان يـؤمن بـأنَّ الحكـم بهمـا فريضـةٌ عليْه ، فـإن كـان لا يـرى ذلك أو كـان يـرى أن الحكـم بغيـرهـمـا أو خلطهما بغيرهما ممّا يعارض ما فيها هو الأعلـى ، فمـا هـو بظـالمٍ فحسبُ بل هو كافرٌ مرتدّ ، يستتابُ ثلاثًـا ، فـإن تـاب وأنـاب وعمـل صالحًا ، فهو الإمامُ المطـاع فيمـا يطيـعُ الله تعـالى فيـه ، وإن لم يتـب نزعتْ منه البيعةُ وأقيم عليْه حدُّ الرِّدة ، يتـولى ذلـك القضـاة والعلمـاء بكتابِ الله تعالى وبسنةِ رسُوله صَلّى اللهُ علَيْهِ وعَلى آلِه وَصَحبِه وسلّم ، وبمؤازرة سائر الناس ومناصرتهم إيمانًا واحتسابًا ، وليس للعامة البتـةَ أن يباشروا ذلك بأنفسهم حتى لا تكون فتنـة لا تصـيبنَّ الـذين ظلمـوا خاصة بل تأكلُ كل شيءٍ .

تبصر قوله : «أَيَّمَا إِمَامٍ» وما فيه من عمومٍ لا يدع أحدًا تولّى إمامةَ قومٍ في أيّ مجالٍ من مجالات الحياةِ .

ثم جاءت الصِّفة : «غَلَّ فَيْئًا ، أَوْ جَارَ فِي حُكْمٍ» أطلق في قولِه : «غلّ فيئا» فلم يبين نوع ما غلّ ، ليتناول كلَّ ما يُمكن أن تقع فيه الخيانةُ ، ، وقوله «فيئا» يريد بِه بيْت المالِ ، أو ما لأحدٍ من رعِيتِه .

وقوله : «جار في حكمٍ» عامٌ لا يقيد بأمرٍ دون أمرٍ . المهم أن يكون ذلك حكم بيْن متخاصمينِ مهما بلغ المتخاصم فيه من القلةِ والهوانِ [1].

---

(١) روى أحمد في مسنده بسندِه حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ حَدَّثَنِى أَبِى حَدَّثَنَا يَحْيَى ابْنُ سَعِيدٍ عَنِ ابْنِ عَجْلاَنَ قَالَ حَدَّثَنِى سَعِيدٌ عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ وَسَمِعْتُ أَبِى يُحَدِّثُ عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ . قَالَ أَبِى قُلْتُ لِيَحْيَى كِلاَهُمَا عَنِ النَّبِىِّ ﷺ قَالَ نَعَمْ . قَالَ «مَا مِنْ أَمِيرِ عَشَرَةٍ إِلاَّ يُؤْتَى بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَغْلُولاً لاَ يَفُكُّهُ إِلاَّ الْعَدْلُ أَوْ يوبِقُهُ الْجَوْرُ».

ورواه الطبراني في المعجم الأوسط من حديث أبي هريرة . رقم (٦٢٢٥) والدارمي في سننه . حديث رقم (٢٥٥٧) والبيهقي في السنن الكبرى . حديث رقم (٢٠٢١٤)

صَححه الألباني في صَحيح الجامع الصغيرِ وزياداتِه . حديث رقم (٥٦٩٥) و صَحيح الترغيب والترهيب حديث رقم (٢١٩٨ ، ٢٢٠٠)

وهنا يأتي ما يرتبه على هاتين الجريرتين قائلا : « بَطُلَتْ إِمَامَتُهُ ، ولَمْ يَجُزْ حُكْمُهُ »

أفيفهمُ هذا على التّوزيع ، فيكون قوله : « بَطُلَتْ إِمَامَتُهُ » راجعًا إلى قوله« غلّ فينا » فيكون الغلول مبطلا للإمامة ، ويكون قوله : « لَمْ يَجُزْ حُكْمُهُ » راجعًا إلى « جار في حكم » فيكون الجورُ مبطلا للحكم غيرَ مبطلٍ للإمامةِ ، أم يفهم هذا على الاقتران والجمعِ معًا ، فيكون الحكمان راجعين إلى أيّ جريرة منهما ، فإن غلّ بطلت إمامته ولم يجز حكمه . وإن جار بطلت إمامته ولم يجز حكمه أيضًا .

أم يكون قوله : « بطلتْ إمامته » راجعًا إلى الإمامِ العام ، ويكُون قوله : « لم يجز حكمه »راجعًا إلى القاضي . فلا يكونُ الجورُ في الحكمِ مبطلا للإمامةِ العامّة ، فلا تُتنزع منه البيعة بالجور في الحكم . بل بالخيانةِ .

إذا نظرت إلى واقعِ ما نحنُ فيه تجد « الجور » بات سِمةً من سماتِ كلّ إمام يقُوم فينا . فلن تجدَ إمامًا عامًّا لا يجور مهما اجتهدت في التنقيبِ ، وهم متفاوتون في هذا الجور .

ذلك أنَّ كلّ من لا يحكم بكتابِ الله تعالى وبسنّة رسُولِه صَلّى اللهُ علَيْهِ وعَلى آلِه وَصَحبِه وسلّم هو جائرٌ لا محالة .

وكلّ من يحكم بكتابِ الله تعالى ، وبسنة رسُولِه صَلّى اللهُ علَيْهِ وعَلى آلِه وَصَحبِه وسلّم على بعضٍ دون بعضٍ ، فلا يقيمه على نفسِه وأهل بيْتِه وقبيلته وعشيرتِه وبطانته ، بيْنما يُقيم شرع الله على سائر الشعبِ دونهم ، فهو أيضًا جائر . فلو أخذنا بأنّ من جار في حكمه بطلت إمامتُه فإنك لن تجدَ البتّة مهما اجتهدت من تتحقّق فيه تلك الفضيلة .

لذا أذهبُ إلى أنّ جورَ الحاكمِ فيما لا يتعَلّق بدين قومِهِ وأعراضهم ، وكرامتهم وحريتهم في ما يُصلحُ معاشِهم لا يبطل إمامته . ويكون على العلماء وطلبة العلم نصحُه أولاً بالحِكمة والموعظةِ الحسنةِ فيما بيْنهم وبينه ، لا في المساجد ووسائلِ الإعلامِ والمنتديات والمؤتمراتِ ، فإن أناب فنعما فعل ، وإلا جهروا بنصِيحته حتى يعلم العامة أنهم نصحوه في ما بينه وبينهم فركب متن العنادِ والإصرارِ على الظلم ، وحينئذ يخرجون عن طاعته فيما جار فيه ، لا فيما عدل فيه ، فهم لايخرجون عنه في جميع أمره ما عدل فيه وما ظلم ، ذلك لا يستقيم أبدًا .

وهم أيضًا لا يحلُّ لهم أن يخرجوا عليْه بسيف أبدًا ، إلا إذا خرج هو وبطانته وحاشيته وحرسه بسيوفهم ، وأعملوها في

الناس ، فعندئذ لا بدَّ من أنْ يدفعَ كلٌّ عن نفسِه وعن أخيه ، وأن يكفوا ظلمَه عنهم . .

فإذا تعلق جورُه بدين النَّاسِ وعقائدِهم ، وأعراضِهم وكرامتهم وحريتِهم في ما يُصلح معاشهم فإنّ جوره يُبطِلُ إمامته ، وعلى العلماءِ وطلبة العلم ، وحكماء الأمّة نصحه فإن تاب وأناب وأصلح ، فنِعمّا وإلا نُزعت اليدُ من بيعته ، وعلى العامّة مؤازرة العلماء والحكماء في هذا دون أن تراقَ نقطة دم واحدة من إنسانٍ إلا دفاعًا عن النّفسِ ، ودون أن ينبسُوا بكلمة شنعاء [1] فما بهذا

---

(١) ما نسمعه في المظاهراتِ وفي وسائل الإعلام من سبّ وشتم ، وإساءة بالقول والحركات للحاكم الظالمِ بعينه وتسميته مما لا يليقُ بمسلم أن يفعلَه . المسلم ليس بسبابٍ ولا شتامٍ ولا لعانٍ .

المسلم المظلوم يخرجُ إلى الحاكم بالحسنى غير ناطق بكلمة سبٍّ أو شتمٍ أو كلمةٍ كاذبة ، وإذاعة الشائعات المختلقة التي لا يعرف مصدرها ، فكفى بالمرء كذبًا أن يحدث بكل ما سمع .

روى مسلم في مقدمة صَحيحِه بسنده عَنْ حَفْصِ بْنِ عَاصِمٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صلى الله عليه وسلم ـ « كَفَى بِالْمَرْءِ كَذِبًا أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ ».

ورواه أبو داود في كتاب الأدب من سننه . وفي مسند ابن أبي شيبة عن أبي هريرة مرفوعًا . حديث رقم : (٢٥٦١٧) وصَححه الألباني في تحقيق مشكاةِ المصابيح حديث رقم (١٥٦) وفي صحيح الجامع الصغير وزياداته . حديث رقم (٤٤٨٢) . ==

يُغير المنكر ، فلتغيره أحكامٌ وآدابٌ يُحسنها العلماء والحكماء ، ولا بدَّ من الالتزامِ بها .

والقولُ بأن للثوراتِ قوانينها ، وأحكامُها قولٌ باطلٌ ، فالعدلُ وفق كتابِ الله تعالى وسنة رسولِه صَلّى اللهُ علَيْهِ وعَلى آلِه وَصَحبِه وسلّم لا يُمكن أن يستبدل بهما أي شيءٍ مهما كانت الأحوال ، ومهما كان ظلمُ الحاكم وجبروتُه وطاغُوتُه ، فالمسلمُ لا ينصر الحقّ إلا بالحقِّ ولا يزهقُ الباطل إلا بالحقّ . .

* * *

ما جاء به الإمامُ أبو حنيفة رضي الله عنه إنما هو وثيقةٌ من مواثيق السياسةِ الشرعية العالية التي يجبُ على كلِّ طالبِ علمٍ أن

==إنما يجري من إساءةٍ بالقولِ من العامةِ في الميادين ومن سحرةِ إبليس وندائهم في وسائل الإعلامِ مما لا يليق بمسلمٍ . ثم إنه لا يغير منكرًا ، ولا يصلح فاسدِه ، فلتغيير المنكر طرقه وأدواته بينها الشرعُ ، فعلى المسلم أن يلزم .

يقُول الله تعالى : ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾ (الهمزة: ١) .

روى البخاري في كتاب (الإيمان) من صَحيحه بسنده عَنْ عَبْدِ اللَّهِ ابْن عَمْرو ـ رضى الله عنهما ـ عَنِ النَّبِىِّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ قَالَ : «الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ».

يُحسن فقهها ، وتبصّر ما فيها من دقائق الحكمةِ ، وهي مع ذلك وثيقة أدبِيّة عالية الشّأن في باب الخطابِ البليغ .

وحرَى بطلابِ علم البلاغة العربيّ أن يحرصُوا على الوفاء بحق مثلِ هذا البيانِ الكريم حقّه مِن الدراسة الجادة ، ونشره بيْن الناس ، فذلك حق العلمِ عليْهم وحَقُّ النّاس أيضا ليكونوا ممَّن يُصلى الله تعالى عليهم وملائكته ومن في السموات والأرض .

روى الترمذي في كتاب (العلم) من جامعه بسنده عَنْ أَبِى أُمَامَةَ الْبَاهِلِىِّ قَالَ ذُكِرَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ رَجُلاَنِ أَحَدُهُمَا عَابِدٌ وَالآخَرُ عَالِمٌ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِى عَلَى أَدْنَاكُمْ» .

ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «إِنَّ اللَّهَ وَمَلاَئِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ حَتَّى النَّمْلَةَ فِى جُحْرِهَا وَحَتَّى الْحُوتَ لَيُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الْخَيْرَ» . قَالَ أَبُو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ . قَالَ سَمِعْتُ أَبَا عَمَّارٍ الْحُسَيْنَ بْنَ حُرَيْثٍ الْخُزَاعِىَّ يَقُولُ سَمِعْتُ الْفُضَيْلَ بْنَ عِيَاضٍ يَقُولُ عَالِمٌ عَامِلٌ مُعَلِّمٌ يُدْعَى كَبِيرًا فِى مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ[1].

---

(١) صححه في صَحيح وضعيف سنن الترمذي . حديث رقم (٢٦٨٥) وصَححه في صحيح الجامع الصغير وزياداته ٧٧٦/٢ . حديث ==

وروى ابن ماجه في (المقدمة) من سننه بسنده عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ « إِنَّ مِمَّا يَلْحَقُ الْمُؤْمِنَ مِنْ عَمَلِهِ وَحَسَنَاتِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ عِلْمًا عَلَّمَهُ وَنَشَرَهُ وَوَلَدًا صَالِحًا تَرَكَهُ وَمُصْحَفًا وَرَّثَهُ أَوْ مَسْجِدًا بَنَاهُ أَوْ بَيْتًا لاِبْنِ السَّبِيلِ بَنَاهُ أَوْ نَهْرًا أَجْرَاهُ أَوْ صَدَقَةً أَخْرَجَهَا مِنْ مَالِهِ فِى صِحَّتِهِ وَحَيَاتِهِ يَلْحَقُهُ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهِ »[1] .

وإنّ الناسَ في زماننا هذا أحوج إلى صدقةِ العلمِ النافع المحقق من صدقة المال ، فصدقةُ العلمِ النافع المحقق إذا ما أُحسن استزراعها واستثمارها ، آبت بخيرٍ وفير من المال الطيب . فنَعِمَّا بِالْمَالِ الصَّالِحِ لِلرَّجُلِ الصَّالِحِ ».

روى البخاري في كتابِه (الأدَبِ المُفرَدِ) في (بَابُ الْمَالُ الصَّالِحُ لِلْمَرْءِ الصَّالِحِ) بسنده حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ يَزِيدَ قَالَ : حَدَّثَنَا مُوسَى ابْنُ عَلِيٍّ قَالَ : سَمِعْتُ أَبِي يَقُولُ : سَمِعْتُ عَمْرَو بْنَ الْعَاصِ قَالَ : بَعَثَ إِلَيَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَمَرَنِي أَنْ آخُذَ عَلَيَّ ثِيَابِي

==رقم (٤٢١٣) حسنه الألباني في تحقيق مشكاة المصابيح . ٧٤/١ حديث رقم (٢١٣) . وقال في صَحيح الترغيب والترهيب : حسن لغيره . حديث رقم (٨١) ١٩/١ .

(١) حسنه الألباني في صَحيح وضَعيف سنن ابن ماجه . حديث رقم (٢٤٢) . وفي صحيح الترغيب والترهيب . ١٨/١ . حديث رقم (٧٧) وفي صَحيح الجامع الصغير وزياداته . ٤٤٣/١ ، حديث رقم (٢٢٢٧)

وَسِلاحِي ، ثُمَّ آتِيهِ ، فَفَعَلْتُ فَأَتَيْتُهُ وَهُوَ يَتَوَضَّأُ ، فَصَعَّدَ إِلَيَّ الْبَصَرَ ثُمَّ طَأْطَأَ ، ثُمَّ قَالَ : «يَا عَمْرُو ، إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَبْعَثَكَ عَلَى جَيْشٍ فَيُغْنِمُكَ اللَّهُ ، وَأَرْغَبُ لَكَ رَغْبَةً مِنَ الْمَالِ صَالِحَةً» ، قُلْتُ : إِنِّي لَمْ أُسْلِمْ رَغْبَةً فِي الْمَالِ ، إِنَّمَا أَسْلَمْتُ رَغْبَةً فِي الإسلام فَأَكُونُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالَ : «يَا عَمْرُو ، نِعْمَ الْمَالُ الصَّالِحِ لِلْمَرْءِ الصَّالِحِ» (حديث رقم ٢٩٩) [١]

وإنّ أمّـةً شـاعتْ فيهـا صَـدقة العلـمِ النـافعِ ، ولم يتخـذ العلـم غرضًـا إلى متـاعِ الحيـاةُ الـدنيا لأمّـة يكثُـر فيهـا الصـالحون ، والقائمون بالأمرِ بالمعروفِ وبالنهي عن المنكر وفـق مـا جـاء بـه بيـان الـوحي . لا إفـراط ولا تفـريط ، ولـن يَجـد فيهـا الطواغيـت

---

(١) ورواه الإمام أحمد في مسنده من حديث عمرو بن العاص . حديث رقم (١٨٢٧٧) ورواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين . حديث رقم (٢١٣٠) وفي موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان ، لأبي الحسن الهيثمي (ت : ٨٠٧هـ) . . حديث رقم (١٠٨٩) ٣/ ٤٢٢ ، وحديث رقم (٢٢٧٨) ٧/ ٢٤٨ ، والطبراني في المعجمِ الوسيط . حديث رقم (٣١٨٩) ٣/ ٢٩١ ، والبيهقي في شعب الإيمان . حديث رقم : ١١٩٠) ٢/ ٤٤٦
صححه الألباني في تحقيق مشكاة المصابيح . حـديث رقـم (٣٧٥٦) ٢/ ١١٠٨ .

مرتعًا ، ولا يعرفُ الجورُ فيها راضيًا به معينُا أو ساكتًا عليْه .

وحينئذ تكون أمة جديرة بما جاء بِه القرآن الكريم :

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ (آل عمران: ١١٠)

قلتُ إنَّ العلم النافعَ صدقةٌ يتصدَّق بها العالم المحقّق الثّقة المخلص لله تعالى على الأمة . وإذا ما كان من هدي النبوة أنه إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة : « إلا من صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له » (مسلم : الوصية) فإنّ كلاًّ من العلم النافع والولد الصالح متدرجان في « الصدقة الجارية » لأنَّ العلم النافع صدقة على من يتلقاه من صانعه وناشره ، والولد الصالح صدقة على الأمة جمعاء فوجود الصالحون في الأمة إصلاح للحياة كلها . فقوله « صدقة جارية » كلمة جامعة إذا لم نحصر الصدقة في ما تعارفه العامة من بذل المال لمن يحتاجه فالأعلى أن الصدقة الجارية كلّ عمل نافع قولاً أو فعلاً خالص لوجه الله تعالى فحصرها في بذل المال لمن يحتاجه إنما هو تحجير واسع .

والعقل البلاغي عقل يبصر انبساط قسطاط معاني الكلم والكلام في سياقاته المقامية والمقالية .

ضيق الرؤية وسطحيتها من أخطر الأمراض التي يبتلى بها طالب العلم فحرًى به أن يستعيذ بالله تعالى منهما فهو المستعاذ به من كل ما لا يرضيه وهو المستجدي كلَّ ما يرضيه فيرضينا . إنه ولي ذلك والقادر عليه والمتفضل به علينا إن شاء سبحانه وبحمده .

* * *

كلمة لابدّ منها إبراء للذمّة

الأمانة والعدل هما عمود بناء شخصية الحاكم والقاضي

والله تعالى يقُول:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴾ (النساء:٥٨)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴾ (النساء:١٣٥)

ويقُول جَلَّ جَلالُهُ:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾

(النحل: ٩٠)

ويقول عزّ وعلا :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ (المائدة:٨)

ولا يخـرجُ العدل عمَّا جـاء بِه الوحيُ قُرآنا وسنة . فلـن يكـون الإمام أو القاضي عادلاً إذَا لم يكن ما حكم بِه جاريًا على ما في كتابِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، ولو كان بتراضِي الطرفين المتخاصمين . فكلُّ ما خالف الكتابَ والسّنةَ لا يجعله الرِّضا من العدلِ فِي شيْءٍ .

يقُول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لنبيه صَلّى اللهُ علَيْهِ وعَلى آلِه وَصَحبِه وسلّم :

﴿ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ

فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَـٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (المائدة:٤٨-٥٠)

وهذا يُلزم به كل حاكم وقاضٍ ، فلا يحلّ له البتة أن يحكم بغير ما أنزل الله تعالى ، وأن يعرضَ عن شرعه لأي أمر أو حالٍ ، فليس ثَم في الحياةِ كلّها ما يبيح لحاكم أو لقاضِي أن يدعَ شرعَ اللهِ جَلَّ جَلالُهُ ، ويحكم بغيرِه ، فذلك هو عينُ الظلمُ والجور ، والطّغيان .

يقُول الله تعالى :

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴾ (الكهف:٥٧)

ويقول سُبْحَانَهُ وتَعَالَى :

﴿ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَـٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ حِمْلًا ﴾ (طه:٩٩-١٠١)

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا

﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ (طه: ١٢٤-١٢٧)

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾

(النساء: ٦٥)

وقد أوجب الله تعالى طاعته وطاعة رسُولِه صَلّى اللهُ علَيْهِ وعَلى آلِه وَصَحبِه وسلّم وأولى الأمور والأحوالِ في ذلك الحكم بين الناس ، فإنَّ معصية الله تعالى ومعصِية رسُولِه صَلّى اللهُ علَيْهِ وعَلى آلِه وَصَحبِه وسلّم في الحكم بيْن الناسِ من الفتنة التي لا تصيبنَّ الذين ظلموا خاصة ، بل هي مبيرة مهلكة ، ولا سيّما لمن رضي ، ولِمنْ ذهب مختاراً إلى قاضٍ سيحكمَ بينه وبين خصمِه بغير ما أنزل الله تعالى ، وهو يعلم ذلك .

يقول الله تعالى :

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (آل عمران: ٣١ ، ٣٢)

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾ (النساء: ٥٩) [١]

---

(١) يقُول ابن قيم الجوزية (ت : ٧٥١هـ) في فقه معاني الهدَى في هذه الآية : «أمر سبحانه بِطاعتِه وطَاعةِ رسُولِه وافتتحَ الآية بالنداءِ باسمِ الإيمانِ المُشعِرِ بِأنَّ المَطلوبَ مِنْ موجِباتِ الاسمِ الذي نُودوا بِه وخُطبوا بِه .
ففي هذا إشارةٌ إلى أنـَّكمْ إنْ كُنتمْ مُؤمنينَ ، فالإيمانُ يَقتضِي منكمْ كذا وكذا ، فإنّه مِن موجباتِ الإيمان وتمامِهِ .
ثُمَّ قال تعالى : ﴿ . . . أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ ﴾ (النساء:٥٩) فقرنَ بيْن طاعةِ الله والرسولِ وطاعةِ وليِّ الأمرِ ، وسلّط عليهما عاملاً واحدًا [أي جعل العامل في اسم الرسول وأولى الأمر عاملاً واحدًا : أطيعوا ولم يقل وأطيعوا أولى الأمر] وقد كان ربّما يسبقُ إلى الوهمِ أنَّ الأمرَ يقتضي عكسِ هذا [أي أن يقال أطيعوا الله والرسول ،وأطيعوا أولي الأمرِ] فإنّه من يُطع الرّسُول فقد أطاع الله [أي كما جاء من بعد ذلك في السُورة نفسِها في قول الله تعالى : ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ﴾ (النساء: ٨٠)] ولكنّ الواقِعَ هنا في الآية [هو] المناسب .
وتحتَهُ سِرٌّ لَطيفٌ ، وهو دَلالتُه على أنَّ ما أمرَ بِه رسوله صَلّى اللهُ علَيْهِ وعَلى آلِه وَصَحبِه وسلّم يَجبُ طاعتُه فيه ، وإن لم يكن مأموراً به بعينه في القرآن طاعة الرسول مفردة ومقرونة .
فلا يتوهَّمُ متوهِّمٌ أن ما يأمر به الرسول إن لم يكنْ في القرآن وإلاّ فلا تجبُ طاعتُه فيه . . .
==

مهمٌّ جدًا أن نتلبّث عند قوله تعالى : ﴿ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ (النساء:٥٩) ولم يقل : « وأولي الأمر » فدلّ هذا على أنه إذا وقعت منازعة بين الناس وولي الأمر فحق عليهم وعلى ولي الأمر معًا أن يردوا ما تنازعوا فيه إلى كتاب الله

==أمّا « أولو الأمر » فلا تجبُ طاعةُ أحدِهم إلاّ إذا اندرجت تحتَ طاعة الرسول ، لا طاعة مفردة مستقلة ، كما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « على المــرء السمع والطـاعة فيما أحب وكـره ما لم يؤمر بمعصية الله تعالى فإذا أمر بمعصـية الله تعالى فلا سمع ولا طاعة » .

فتأملْ كيف اقتضتْ إعادةُ هذا المعنى قولَه تعالى : (فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ) ولم يقل : « وإلى الرّسول » فإنَّ الردَّ إلى القرآن ردٌّ إلى الله تعالى والرَّسول ﷺ ، فما حكم به الله تعالى هو بعينه حكم رسوله ﷺ وما يحكم به الرسول صلى الله عليه وسلم هو بعينه حكم الله تعالى .

فإذا رددتم إلى الله تعالى ما تنازعتم فيه يعني كتابه فقد رددتموه إلى رسوله ﷺ وكذلك إذا رددتموه إلى رسوله ﷺ فقد رددتموه إلى الله تعالى وهذا من أسرار القرآن »

(الرّسالة التبوكية : زاد المهاجـر إلـى ربــه ، لابـن قيـم الجـوزيـة . (ت : ٧٥١هـ) تقديم وتعليق : محمد جميل غازي . نشر : مكتبة المدني ومطبعتها ـ جدة . (د . ت) ص ٣١ ، ٣٢)

وراجع معه : إعلام الموقعين عن رب العالمين . لابن القيم . تحقيق : محمد عبد السلام إبراهيم . نشر : دار الكتب العلمية ـ بيروت . الطبعة الأولى عام : ١٤١١هـ ١/ ٣٨

تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وفي هذا دلالة على أن المنازعة قد تقع بين ولي الأمر ومن يتولى أمرهم العام (الشعب) وهذا ينقض دعوى «اسمعوا لي ، لا تسمعوا لغيري» فهذه ليس لها محل في هدي الشَّرع قرآنًا وسنة .

الشرع يوجب على ولي الأمر أن يقول لرعيته : إن أحسنت فأعينوني وإن أخطأت فقوموني» إنها «دستور» أهل العَدْل والرَّحمة .

﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴾ (النساء: ٦٩)

﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ﴾ (النساء: ٨٠)

﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحۡذَرُواْۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴾ (المائدة: ٩٢)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ٢٠ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴾ (الأنفال: ٢٠، ٢١)

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةًۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾ (الأنفال: ٢٤ ، ٢٥)

﴿ قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَـٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴾ (النور: ٥٤)

﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴾

(النور: ٥١ ، ٥٢)

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلاً سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَـٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَـٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ

ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمَۢا ﴾

(الأحزاب: ٦٩-٧٣)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴾ (محمد: ٣٣)

﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴾ (التغابن: ١٢)

من يقرأ هذه الآيات أو يسمعها ، وهو مؤمنٌ بأن هذا كلام الله تعالى ثم لا يحكم بما شرعه الله تعالى في كتابِه وفي سُنةِ رسُولِه صَلّى اللهُ علَيْهِ وعَلى آلِه وَصَحبِه وسلّم ، وحكم ما يخالِفهما ، فهو الظّلومُ الجهولُ .

ومن رضيَ بأن يُحكَم بينه وبين خصمه بغير ما شرع الله تعالى في الكتابِ والسنة ، فقد رضي بمنكر عظيمٍ ، وإن مات ولم يتبْ منه فقد مات على كبيرة .

ومن ثَمَّ لا يكون القاضي عادلاً إذا ما حكم بقانون وضعيّ يُعاندُ ما في كتابِ الله تعالى وسنة رسُولِه صَلّى اللهُ علَيْهِ وعَلى آلِه وَصَحبِه وسلّم ، فتقريرُ المجالس النّيابيّة لقوانينَ مخالفةِ لشَرع اللهِ تعالى في كتابِه وسنة رسوله صَلوات اللهِ وسلامُه عليْه وعلى آلِه

وصحبه ، لا يجوزُ للقاضِي أن يحكمَ بها ، فإنْ حَكَمَ بها ، فإنّما هو الجائرُ الظَّالمُ ، وإن أجادَ تطبيقها وأحسنَ إنزالَها على ما بيْن يديْهِ من خصُومةٍ .

المجالسُ النّيابيّة ليست وظيفتها أن تشرّع ، فإنّما المُشرّع هو اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وحدَه .

المجالسُ النِّيابيّة (مجلس الشعب أو مجلس الأمَّة) ليس له إلا أنْ يُقرَّ ما تولّى بيانَه العلماءُ بشرع الله تعالى في كتابِ الله تعالى وفي سُنة رسولِه صَلوات اللهِ وسلامُه عليْه وعلى آلِه وصحبه في صور قوانين ذات بنود لتيسّرَ على القاضي إنزالَ الحُكم المُطابق لِما في كتابِ الله تعالى وسنّة رسولِه عليه الصلاة والسلام على القضيّة ، ذلك أنَّ غيرَ قليلٍ من القضاة في زماننا هذا لا عِلمَ لهم بشرعِ الله تعالى يجعلهم قادرين على إنزالِه على ما بيْن أيديهِم من قضيةٍ .

المُهمّ أن المجالس النِّيابية ليست وظيفتها التّشريع وإصدار قوانين يحكم بها بين العباد تخالفُ شرع الله تعالى إنّما وظيفتها مراقبة ولي الأمر العام : الرئيس والحكومة وأصحاب الولاية في الدولة ، ومحاسبتهم ، وتيسير أمور العباد ، ولا سيّما الضعفاء والمنهكين .

كلُّ قاضٍ حكم بقانون مخالف لكتابِ الله تعالى وسنة رسُولِه صَلّى اللهُ علَيْهِ وعَلى آلِه وَصَحبِه وسلّم هو ظالمٌ جائر ، وإن كان الّذي حكمَ به صادرٌ عن المجلس النيابيّ ، وغيرَ مخالفٍ لدستور الدَّولة ، فكلّ ذلك لا يجعلُ الحكمَ به عدلاً .

وإن أراد كل قاضٍ النصيحة لنفسِه وهي واجبةٌ عليْه أن يفرّ من الحكم بغيرَ ما أنزل الله تعالى ولو أن يعضَّ بأصلِ شجرةٍ حتّى يأتيه أجلُه ، وهُو على الحقّ المُبين ، فارًّا بدينِه ، متحاجزًا عن أن يكونَ مِن الظالمين ، ومُتجافِيًا عن ما لا يُرضِي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، فإنْ لَمْ يَفعلْ فقَد خسرِ الدّنيا والآخِرَةَ . ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ

ولا يَغرُرْك ما يفتريه بعضُ شيوخ الفتنة والفحشاء من أنَّ كلَّ القوانين المطبقة في القضاءِ مطابقة للشَّريعة الإسلامية . هذا إفكٌ مبينٌ يتصايحون به .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ (المائدة:٨)

﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةًۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾ (الأنفال:٢٥)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾

(التوبة: ١١٩)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴾

(لقمان: ٣٣)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴾

(الأحزاب: ٧٠)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴾ (الحجرات: ١)

﴿ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُۚ إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۖ وَإِن تَدۡعُهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ فَلَن يَهۡتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا ﴾ (الكهف: ٥٧)

﴿ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓۚ أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡكَٰفِرِينَ ﴾ (العنكبوت: ٦٨)

﴿ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعۡرَضَ عَنۡهَآۚ إِنَّا مِنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾ (السجدة: ٢٢)

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴾ (الزمر: ٣٢)

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَـٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَمَسَـٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَـٰهِرِينَ ﴾ (الصف: ٧-١٤)

﴿ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة: ٢٣٢)

﴿ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴾ (الطلاق: ٢ ، ٣)

* * *

وأمرٌ آخر : أحقًّا ما يتصايح به بعضُ القانونيين من أنّ حكم القضاء عنوان الحقِيقة ؟

هذا من الإفك الذي يحمله أولئك إلى مَسامع النَّاسِ .

إنَّ الهديَ النبوي الشريف لَيكذّبهم :

روى البُخاري في كتابِ (المظالم) و (الشهادات) و (الأحكام) ومسلم في كتاب (الأقضية) بسندهما عَنِ ابْنِ شِهَابٍ قَالَ أَخْبَرَنِى عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ أَنَّ زَيْنَبَ بِنْتَ أُمِّ سَلَمَـةَ أَخْبَرَتْهُ أَنَّ أُمَّهَـا أُمَّ سَلَمَةَ ـ رضى الله عنها ـ زَوْجَ النَّبِىِّ ﷺ أَخْبَرَتْهَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّـهُ سَمِعَ خُصُومَةً بِبَابِ حُجْرَتِهِ ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ ، فَقَالَ :

« إِنَّمَا أَنَـا بَشَرٌ وَإِنَّهُ يَأْتِينِى الْخَصْمُ ، فَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَبْلَغَ مِنْ بَعْضٍ ، فَأَحْسِبُ أَنَّـهُ صَدَقَ ، فَأَقْضِىَ لَهُ بِذَلِكَ ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَـقِّ مُسْلِمٍ ، فَإِنَّمَا هِىَ قِطْعَـةٌ مِنَ النَّـارِ ، فَلْيَأْخُذْهَا أَوْ فَلْيَتْرُكْهَا » .

هذا البيانُ النبويّ الحكيم الكريم صريح في أنَّ الحكم في أيّ خصومةٍ ، وإنْ كانَ الحاكم فيها هو النَّبيّ صَلّى اللهُ علَيْهِ وعَلى آلِه وَصَحبِه وسلّم باجتهادٍ : بغير وحي نزل بالحكم عينه ليس هو عنوانَ الحقيقة .

إنَّ على كل مسلم ألا يسلم أذنيه وعقله لأمثال أولئك الذين يهرفون بما لا يعلمون .

﴿ وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولاً ﴾ (الإسراء:٣٦)

روى الشيخان البخاري في كتاب (الرقاق) ومسلم في كتاب (الزّهد والرقائق) بسندهما عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ :

« إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مَا يَتَبَيَّنُ فِيهَا ، يَزِلُّ بِهَا فِي النَّارِ أَبْعَدَ مِمَّا بَيْنَ الْمَشْرِقِ » . .

الكلمةُ في لسان كثير ممن تسمَع إنّما هي المبيرة ما في الأرضِ السافكة للدماء ، الهاتكة للأعراضِ القاطعة للأرحام .

اللهم إنا نبرأ إليك مِنهُم ومِمّن رَضِي بِهِم .

اللَّهُمَّ إِنَّا نَجْعَلُكَ فِي نُحُورِهِمْ وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شُرُورِهِمْ

والكلمة في لسان المسلم نورٌ ينيرُ الطريق إلى الله تعالى ، تشرح صدورًا إلى الهدى، وتأخذ بأيدي الجاهلين إلى الحقّ المُبين

اللهم اجعلنا من أئمتهم ، ومن مؤازريهم إيمانًا واحتسابًا .

يقُول الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾

(إبراهيم: ٢٤-٢٧)

﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيدًا ﴾ (النساء: ٩)

﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾ (الإسراء: ٥٣)

﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾

(النور: ٥١)

* * *

اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ وَابْنُ عَبْدِكَ وَابْنُ أَمَتِكَ نَاصِيَتِي بِيَدِكَ مَاضٍ فِىَّ حُكْمُكَ عَدْلٌ فِىَّ قَضَاؤُكَ أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَداً مِنْ خَلْقِكَ أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي وَنُورَ صَدْرِي وَجَلاَءَ حُزْنِي وَذَهَابَ هَمِّي .

اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ أَنْ نَرْجِعَ عَلَى أَعْقَابِنَا أَوْ نُفْتَنَ عَنْ دِينِنَا

اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ

اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ نُشْرِكَ بِكَ شَيْئاً نَعْلَمُهُ وَنَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لاَ نَعْلَمُ

اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ مَا سَأَلَكَ مِنْهُ نَبِيُّكَ مُحَمَّدٌ وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا اسْتَعَاذَ بِكَ مِنْهُ نَبِيُّكَ مُحَمَّدٌ وَأَنْتَ الْمُسْتَعَانُ وَعَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ .

اللهم إنّا نسألك بكلّ ما تحبّ أن تسأل به ، ونسألك بكلِّ عملٍ صالحٍ وفقتنا إليْه وتقبلته منّا أن تصلّى وتسلّم وتبارك على سيّدنا مُحمّد عبدِك ونبيّك ورسُولك وعلى آلِه وصحبِه وأزواجه ، وورثتِه من أهلِ العلم عدَد خلقِك ورِضاءَ نفسِك وزِنةَ عرشِك

ومِداد كلماتِك . مِلْءَ السموات ومِلْءَ الأرضِ ومِلْءَ ما شئتَ مِن شيْءٍ بعد كما تحبّ وترضَى إنّك حميدٌ مجيد . صَلاةً تفرّج بها الكروبَ ، وتسترُ بها كلَّ العيوبِ ستراً لا ينكشفُ لأحدٍ أبدًا في الدنيا والآخرة ، وتجبر بها النقص ، وتقضِي بها الحاجاتِ وتُنيل بها الرَّغباتِ ، وتُعينُنا بها على نَصر الحقِّ بالحق ، وزهقِ الباطلِ وأهلِه إيمانًا واحتسابًا ، وتجعلُ كل كلمةٍ ننطقُها أو نرقنها نوراً يهدِي إلى الحقّ وإلى صراط مُستقيم ، وسيفًا يقطع رقابَ الذين يكرهون ما أنزل الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم الصادين عن الحق ، صلاةً ترزقُنا بها حُسنَ الخاتمةِ فِي الأمورِ كلِّها ، إنّك يا إلهنا ويا ربَّنا وليُّ ذلك ، والقادر عليْه ، والمتفضّل به . فنعم الرَّبُّ أنت سُبحانك سُبحانك سُبحانك .

أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ لاَ أُحْصِى ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ

سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ . والحمدُ لله ربِّ العالمين .

وكتبه

محمود توفيق مُحمّد سعد

الأستاذ في جامعة الأزهر (سابقًا)

almasry411@gmail . com

ثبت أهم المصادر والمراجع

● أخبار أبي حنيفة وأصحابه ، تأليف أبي عبد الله الصَّيْمَري الحنفي (ت : ٤٣٦هـ) نشـر : عالم الكتب ـ بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٥هـ

● الأعلام ، تأليف : خير الدين الزركـلي (ت : ١٣٩٦هـ) نشر : دار العلم للملايين . الطبعة الخامسة عشر . سنة ٢٠٠٢م

● تاريخ الإسـلام ووفيـات المشـاهير والأعـلام تأليف : شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (ت : ٧٤٨هـ) تحقيق : عمر عبد السلام التدمري نشر : دار الكتاب العربي ، بيروت . الطبعة الثانية ، ١٤١٣ هـ (٩/٣٠٥)

● تاريخ بغداد ، للخطيب البغدادي (ت : ٤٦٣هـ) تحقيق : مصطفى عبد القادر عطا . نشر : دار الكتب العلمية ـ بيروت . الطبعة الأولى ، ١٤١٧ هـ .

● التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان وتمييز سقيمه من صحيحه ، وشاذه من محفوظه . مؤلف الأصل : محمـد بـن حبـان ابن أحمد بن حبان بـن معـاذ بـن مَعْبـدَ ، التميمـي ، أبـي حـاتم ،

الدارمي ، البُستي (ت : ٣٥٤هـ) . ترتيب : الأمير أبي الحسن علي ابن بلبان بن عبد الله ، علاء الدين الفارسي الحنفي (ت : ٧٣٩هـ).

مؤلف التعليقات الحسان : أبي عبد الرحمن محمد ناصر الدين ، الألباني (ت : ١٤٢٠هـ) الناشر : دار با وزير للنشر والتوزيع ، جدة ـ المملكة العربية السعودية الطبعة الأولى ، ١٤٢٤ هـ

● الرّسالة التبوكية : زاد المهاجر إلى ربه ، تأليف ابن قيم الجوزية . (ت : ٧٥١هـ) تقديم وتعليق : محمد جميل غازي . نشر : مكتبة المدني ومطبعتها ـ جدة . (د . ت)

● سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها . تأليف : الألباني . الناشر : مكتبة المعارف للنشر والتوزيع ، الرياض . الطبعة الأولى .

● سير أعلام النبلاء تأليف للذهبي (ت : ٧٤٨هـ) تحقيق : مجموعة من المحققين بإشراف شعيب الأرناؤوط . نشر : مؤسسة الرسالة . الطبعة الثالثة ، ١٤٠٥ هـ .

● شذرات الذهب في أخبار من ذهب . تأليف : عبد الحي ابن أحمد الحنبلي (ت : ١٠٨٩هـ) تحقيق : محمود الأرناؤوط . خرج أحاديثه : عبد القادر الأرناؤوط . نشر : دار ابن كثير ، دمشق ـ بيروت الطبعة الأولى عام ١٤٠٦ هـ .

● شعب الإيمان . تأليف أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني ، تأليف أبي بكر البيهقي (ت : ٤٥٨هـ) حققه وراجع نصوصه وخرج أحاديثه : الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد أشرف على تحقيقه وتخريج أحاديثه : مختار أحمد الندوي ، صاحب الدار السلفية ببومباي ـ الهند ـ الناشر : مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند الطبعة : الأولى ، ١٤٢٣ هـ

● صحيح الترغيب والترهيب . تأليف الألباني . الناشر : مكتبة المعارف ـ الرياض . الطبعة الخامسة

● غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام . تأليف الألباني نشر : المكتب الإسلامي ـ بيروت . الطبعة الأولى عام : ١٤٠٠ هـ .

● مناقب الإمام أبي حنيفة وصاحبيه . تأليف : شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (ت: ٧٤٨هـ) عني بتحقيقه والتعليق عليه : محمد زاهد الكوثري ، أبو الوفاء الأفغاني . الناشر : لجنة إحياء المعارف النعمانية ، حيدر آباد الدكن بالهند . الطبعة الثالثة ، ١٤٠٨ هـ .

● مسند البزار المنشور باسم البحر الزخار . تأليف أبي بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق بن خلاد بن عبيد الله العتكي المعروف بالبزار (ت : ٢٩٢هـ) . تحقيق : محفوظ الرحمن زين الله ، وعادل بن سعد وصبري عبد الخالق الشافعي . الناشر : مكتبة العلوم والحكم ـ المدينة المنورة . الطبعة الأولى : ١٩٨٨م

● موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان . تأليف أبي الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي (ت : ٨٠٧هـ) تحقيق : حسين سليم أسد الدّاراني ـ عبده علي الكوشك الناشر : دار الثقافة العربية ، دمشق الطبعة : الأولى ، (١٤١١-١٤١٢ هـ) (١٩٩٠ -١٩٩٢ م)

● وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان تأليف أَبِي العباس شمس الدين : أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن خلكان (ت : ٦٨١هـ) تحقيق : إحسان عبَّاس . نشر : دار صادر ـ بيروت .

محتويات الكتاب

الفصل الثاني

عمود الوصيةِ

(٦٥-١٠٢)

للمؤلف
محمود توفيق مُحمّد سعد

- دلالة الألفاظ على المعاني عند الأصوليين ـ دراسة منهجية تحليلية (نشر مكتبة وهبة . القاهرة)
- سبل استنباط المعاني من الكتاب والسنة ـ دراسة منهجية تأويلية ناقدة (نشر مكتبة وهبة . القاهرة)
- صورة الأمر والنهي في القرآن الكريم (نشر مكتبة وهبة . القاهرة)
- فقه تغيير المنكر ـ سلسة كتاب الأمة ـ قطر (نفد)
- البقاعي ومنهاج تأويله بلاغة القرآن الكريم (نشر مكتبة وهبة . القاهرة)
- فقه بيان النبوة ـ منهجا وحركة ـ دراسة في البلاغة النبوية (نشر مكتبة وهبة . القاهرة) (نفد)
- من ميراثِ النبوة دارسة في البلاغة النبوية (نفد)
- قراءة في المثل السائر لابن الأثير (نفد)
- تغييب الإسلام الحق : نقض افتراءات العلمانيين على القرآن الكريم ـ نشر مكتبة وهبة ـ القاهرة
- إشكالية الجمع بين الحقيقة والمجاز في البيان القرآني . (نشر مكتبة وهبة . القاهرة)
- مسالك العطف بين الإنشاء والخبر في الذكر الحكيم . (نشر مكتبة وهبة . القاهرة)
- نسق بناء القصيدة في عيار الشعر لابن طباطبا ـ دراسة نقدية (نفد)
- قضايا نقدية في طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحيّ (نفد)

* * *

بحوث محكمة نشرت في حوليات علمية

- فقه التعبير القرآني في ضوء مقامات القرب . (بحث محكم نشر في مجلة كلية اللغة العربية جامعة الأزهر ـ فرع المنوفية)
- الاستفهام القرآني دقائق علمية ورقائق إيمانية (بحث محكم نشر في مجلة كلية اللغة العربية جامعة الأزهر ـ فرع المنوفية)
- التفكير البلاغي في بيان الوحي (بحث محكم نشر في بحوث المؤتمر العلمي بجامعة أم القرى بمكة المكرمة).
- مستويات بناء صورة المعنى في العقل البلاغيّ . (بحث محكم نشر في مجلة جذور المحكمة الصادرة من نادي جدة الأدبي بجدة)
- نقد مذهب التقي السبكي في منع دلالة التقديم على الحصر (بحث محكم نشر في مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض)
- أصول البحث في بلاغة التناسب القرآن (مؤتمر الدراسات البلاغية في القرآن) جامعة الإمام بالرياض (سنة ٢٠١٦م) .
- الدراسات البلاغية العليا في جامعة الأزهر ـ الداء والدواء (مؤتمر النهوض بالبحث البلاغي والنقدي) جامعة الأزهر ـ كلية البنات الإسلامية بالقاهرة سنة ٢٠١٦م .
- نقد العقل البلاغي (مؤتمر العقل وعلوم العربية) جامعة الأزهر ـ شبين الكوم سنة ٢٠١٧م .
- مراجعات ناقدة في أسلوب الفصل والوصل (بحث نشر في مجلة (جذور) حولية نادي جدة الأدبي الثقافي .
- نظرية النظم الجرجانية وقراءة الشعر (بحث نشر في مجلة كلية اللغة العربية ـ جامعة الأزهر ـ شبين الكوم) .